أصحاب الملامح الباهتة

روايـــــة

شريف محيى الدين

الطبعة الأولى

تصدر عن

جماعة أصيل الأدبية

الإسكندرية

أصحاب الملامح الباهتة

روايــــــــــة



رقم الإيداع: ٢٠٠١/١٧٦٧٩

الترقيم الدولى: 4 - 204 – 327 – 977

إهــــداء

إلىَّ (أنا) !!!

الجسد والروح.

الحقيقة والسراب.

إلىَّ (أنا) !!!

الظل والأصل والشبح والخيال.

إلىَّ (أنا) !!!

أنا الانسان، ذلك المخلوق الضائع، الصارخ فى البرية، الحائر فى كل زمان ومكان.

شريف محيى الدين

أصحاب الملامح الباهتة

وإرهاصات رواية المستقبل

القاص والروائى الشاب شريف محيى الدين، أديب مــن جيــل التسعينات، مسكون بهاجس الأدب والفن والفلسفة، وليس ذلــك بالأمر الغريب على أبناء هذا الجيل، الذى فتحت فيه تكنولوجيـا المعلومات وآليات عصر العولمة الأبواب على مصاريعها أمــام امتزاج الفنون بالعلوم والآداب، وتماهى الحدود بين الأجنـــاس الأدبية، ليس فقط فى إطار ثقافة بعينها عربيـــة أو آســيوية أو أفريقية أو غربية، بل عبر الثقافات المتعددة بتعدد لغات العـــالم كله.

رواية (أصحاب الملامح الباهتة) هى الإنجـــاز الثـــالث للأديب الشاب فى دنيا القصة والرواية فقد أصدر عـــام ١٩٩٨ مجموعته القصصية الأولى (أحذية وكلمات) ، ثم أصدر عـــام ٢٠٠٠ روايته الأولى "طائر على صدر امرأة "، فكـــانت نقلـــة جديدة وجريئة. وقفزة فى إبداعه، تشى بقـــدرة الكـــاتب علـــى معالجة الرواية. بذات الحساسية والحرفية والوعى، التى عـــالج بها قصصه القصيرة كما عبرت عن مدى تمسكه وإصراره على إبداع كتابة مغيرة للسائد والمألوف، ودفع المزيد من التجـــارب

فى نهر الإبداع العربى المعاصر، خاصة الإبداع الشبابى، الذى تربى أصحابه على إنجازات الشيوخ الكهول، ويحاول أن يبدع هو فنه الخاص، فن أوائل الألفية الثالثة الذى تتناوشه الحداثة وما بعد الحداثة، والمعلوماتية والتكنولوجيا والعولمة، التى فرضت أنساقاً جديدة مغايرة، وقد وضح ذلك لى بعد الفراغ من قراءة رواية شريف محيى الدين (أصحاب الملامح الباهتة) التى أرى أنها تمثل إرهاصة لرواية المستقبل وتماهى الحدود بين الأجناس الأدبية.

(أصحاب الملامح الباهته) ببنيانها، ونسيجها، وأسلوب السرد الذى إتبعه الكاتب، ولغتها ، لها نكهة مفزعة ولا تظنن عزيزى القارئ أنى بذلك القول أحاول جذبك لقراءتها، أو أرغبك فيها، أو أحاول تحذيرك وصرفك عنها إشفاقا عليك، بل أقرر لك واقعا شعرت أنا به وأنا اقرأ هذه الرواية، لأنها فجرت عندى الكثير من الأسئلة والتخيلات لما يمكن أن يكون عليه حال عالمنا فى ظل تصاعد الخط البيانى لتطور التكنولوجيا، نعم.. لقد اصابنى الفزع وأنا أقرأ هذه الرواية، لكنه ليس من نوع الفزع الذى ينجم عن قراءة رواية من روايات الرعب، أو قصة من القصص القوطية التى تجرى أحداثها فى القصور أو القلاع القديمة أو الأماكن النائية المهجورة، المسكونة بالأرواح

والأشباح، وتوابيـــت الموتـــى، وآلات التعذيـــب، وأحـــواض الأحماض التى تذيب الأبدان، والجدران المتحركة التى تســـحق العظام، والأسقف التى تنز بالدماء، والسراديب التى تشبه متاهة اللابيرنت، الحاشدة بالجرذان والأفاعى والهياكل العظمية، بـــل فزع من نوع آخر ينبجس فى الدماغ، ما أن يستدرجك الكـــاتب إلى عالمه، فتظل طوال الوقت معه يقظا مترقبا تســـأل نفســـك وماذا بعد؟ وتظل تقلب الأوراق وأنت تتابع تطور الحدث، عـبر توترات لا نهائية، وكل سمة من سمات الشخصيات، وتظل تقوم بهذا كله وأسئلة كثيرة تدور فى ذهنك عن هـــذا العـــالم الـــذى تسيطر عليه زمرة من أصحاب الملامح الباهتة، لكنك لن تجـــد لها إجابات شافية، مانعة جامعة، ربما قد تلوح لك كسراب وأنت تطوى الورقة الأخيرة للرواية ، أو لا تلوح، لأن هذه الأســـئلة تبزغ فى الذهن، لا باحثة عن إجابات بل معـــبرة عـــن حـــيرة الإنسان المعاصر، العائش فى أوائل الألفية الثالثة، الذى يـــدور فى دوامة من المتغيرات تجلده فيها ســـياط التكنولوجيـــا التـــى تصيب الرضع بالكهولة قبل أن يشبوا عن الطـــوق، والجديـــد بالقدم وهو فى أوج جدته، سياط عصر المعلومات، والعولمـــة، الذى زلزل بقوة وعنف أعماق الإنسان، عصر اختلاط الأضـــداد ونهاية التاريخ، نهاية تضاد القبيح فى الفن، واليسار واليمين فى

السياسة، والصادق والزائف فى الإعلام، والموضوعى والذاتى فى العلم، إنه فزع الأسئلة المحيرة،لإنسان العصر الذى ما أن يستوعب قدرا ضئيلا من المعلومات حتى تطمه موجة جديدة هادرة، تقلب جديده الذى أستوعبه قديما ومتخفيا، فيقع فى هوة اليأس والإحباط، خاصة الإنسان المستهلك للمعرفة لا المشارك إنتاجها وهم الأغلبية الساحقة التى تسحقها وتستذلها أصحاب الملامح الباهتة، والتى ستظل إلى الأبد محدودة القوة نسبية المعرفة، وأنه يعيش وهما، ويقتات سرابا، وأنة يعيش حالة اغتراب، متشعب الجوانب، إجراما وتوحشا وجهالة وظلامية من وحوش الغابة، وأنة مجرد ذرة مرمية فى الكون الشاسع المهول الإتساع محاصرا داخل سجن كئيب، داخل جدران غير منظورة، ذرة وحيدة، غريبة، لا منتمية، إنبتت بينها وبين الأخرين كل الصلات الحميمة التى كانت تميز الأنسان قبل عصر التكنولوجيا ذلك هو (أنا) بطل الرواية، وذلكم هم من معه... الذين تسيطر على مقدرات أمورهم... زمرة من أصحاب الملامح الباهتة وتلك هى الرواية التى يقينا ليست شطحة من شحطات خيال جامح، ولاهى هلاوس كابوسية، بل هى إرهاصة لروايات الألفية الثالثة، رواية تخلصت من عنصر الزمان، والمكان، والدلالات، التى كانت تجعل من الرواية

التقليدية خزانة غنية جيدة الترتيب لايضيع منها شئ ولا تفوتهـــا شاردة ولا واردة، المعانى فيها تسيطر على كل شئ، وقد نقبـــل أو نرفض ما كتبه شريف محيى الدين، إلا أننا فـــى النهايـــة لا نملك إلا أن نحترم محاولات أدباء الألفية الثالثة فى تعبيـــد درب جديد لأدبهم وإبداعهم فى ظل متغيرات ســـريعة رهيبـــة تكـــاد تعصف بكل الثوابت التى درجنا عليها.

أنور جعفر

مـــدخـــــل

(١)

عندما تصبح الحياة بلا معنى!!

يتحتم على المرء أن يضرب بخمار أسود كثيف حول عقله.....
متناسيا كل شئ .. متناسيا حتى نفسه .. وعندما يصير التشـــبث
بها لعبة مجنونة، يستحيل التذكر ضربا من ضـــروب اللهــو ..
عبثا لا جدوى ولا طائل منه.

فلنحيا ، ولنسخر... نسخر حتى من حقيقة وجودنا.

(غريب)

(٢)

تمهل!!

تريث!!

فنحن لسنا فى عجلة من أمرنا، ولتنظر أمامك مليا، قبل أن تسلم
قدمك للخطوة التالية.. ويا حبذا إن لم تخطها أبدا ، ولتبقى فـــى
مكانك لائذا به...

فكل ما هو موجود فى هذا العالم يدعو إلـــى الـــتريث ... إلـــى

(سالم)

(٣)

فى اللحظة التى يصيب الشلل فيها كلتـــا يدانـــا يتحتـــم علينـــا أن نصمت.

(عاكف)

(٤)

إذا كان الواقع ينبض بالأسى .. يعج بالمتناقضات .. فلنضع نصب أعيننا أنه واقعنا نحن، ولنعى جيداً أنه حقيقة وجودنا بكـــل مـــا يحمل من حيرة وشقاء.

(طارق)

(٥)

الحياة ضحكة صافية ... هادئة ... بسيطة .

حتى وإن ارتدت لبعض الوقت نظارة سوداء فحتما سيأتى الوقت الذى ستخلعها فيه عن عينيها.

(مسعد)

(٦)

إذا كنت قد فقدت الكثير ، فلا زال لى عقل يعمل، وقلب ينبض، وإذا كان يتحتم على المرء أن يدركه الموت، فلماذا لا نتشبث بـــآخر قطرة فى الحياة.

(أمـــل)

(٧)

إذا أردت أن تنجز أى شىء فعليك بإتباع الأوامر ولتنفذها بحرفية شديدة ، ودقة بالغة.

(عابد)

(٨)

من ذاتية الوهم، المترسب فى أغوار أنفسنا، المتعطشة دومـــاً و المتطلعة أبداً ، إلى الحقيقة المطلقة، يتحتم علينـــا أن نـــدرك أن المرء لا شىء... سوى كتلة من المشاعر .. كتلة من الأحاسيس المتضاربة!!!

والمرء وحده فقط يستطيع أن يرتدى قناع الحزن .. ووحده فقط يستطيع أن يرتدى قناع السعادة !!!

فحتما يجب أن ندرك أن مصنع أقنعة العواطـــف لازال يعمـــل ويدور داخل أغوار أنفسنا.

(أنا)

(١)

"المجهول"

أين (أنا) ؟!

الصمت المطبق يغلف المكان بسكون مريب، غيبوبة عميقة أنتشل نفسي منها، خيالات لأشباح تتضح رويدا وتتلاشى..

عندما تماسكت أدركت لتوى أننى محاصر بمجموعة هائلة من البشر.

ثمة شيء مريب يلفهم جميعاً .. بحثت عن ذوات الملامح الباهتة.. لم أجد واحدا منهم .

داهمتنى عدة تساؤلات مبهمة.....

أين (أنا) ؟! وكيف جئت إلى هنا ؟ ومن هؤلاء الناس؟!

بجانبى وعلى ذات السرير الممد جسدى عليه ثمة فتاة فائقة الحسن استدرت إليها .. كانت تغط فى سبات عميق .. هززتها برفق ولكنها لم تتحرك... لكزتها بقوة فى ظهرها .. لكنها ظلت على حالها ساكنة.

فزعت!!

فزعت عندما أيقنت أنها ميتة.

كانت الإضاءة فى الحجرة المغلقة جد خافتة، عندما صرخـــت:

ميت... ميت.

عاد إلى صدى كلماتى الموحشة...

نهضت جزعاً ورعباً ... جريت إلى أحد شركائى فى الحجرة..

كان جالساً على مقعد من الخيزران يدخن بعض اللفائف من التبغ ... صرخت فى وجهه.

لم يعيرنى أدنى إهتمام !!

دفعته بقوة : قم يا رجل فتاة ميتة.

ولكنه سقط على وجهه.تحسسته فى رعـــب قـــاتل ... العينـــان مفتوحتان تشعان ببريق الحياة ... اليد توحى بحركة واضحة..

الفم مطبق بشدة على إحدى اللفائف الفاخرة..ولكنه ميت.!!!

جريت إلى السرير الآخر ... كان صاحبيه كسابقيهما .

أدركت أننى فى حجرة الموت مع إناس موتى ... إزدادت حـــدة توترى انتابنى خوف مفرط مقرون بالانفعال الشـــديد .. تلفـــت حولى فى وجل، وفى محاولة يائسة على أجد حياً واحداً جعلـــت أنتزع كل الأغطية .

بدت حركة واضحة على أحد الأسرة الجانبية.

استدرت إليه وفى توسل ناشدت السماء ألا يكون مثل سابقيه من الموتى كانت الدماء الغزيرة تتدفق منسابة علــــى أحـــد أعمـــدة

السرير، صعدت ببصرى إلى أعلى ... كانت أتية من الجسد ...
ندت عنه أهة خافتة أو أنة بسيطة فاطمـــأننت قليـــلا .. رفعـــت
الغطاء من فوقه ، أذهلتنى المفاجأة المروعة!!!

كان جسدا بلا رأس !!!

حدجته بنظراتى المفعمة بالفزع..

ثمة رقبة ممزقة تنزف دما بارزة العروق والشرايين، بينما عظمة
الرأس المفصولة واضح بها أثار الكسر الوحشى...

أحسست بالدم يصعد حاراً إلى وجهى وبالإعياء المفرط يصيبنـــــى
وترنحت بشدة لأسقط لتوى مغشياً على.

(٢)
"البحث"

فى فناء كبير محاصر بأعداد غفيرة من البشر ... يطوف علينـــا العديد من ذوى الملابس البيضاء، ملامحهــــم كــانت غريبـــة، عجيبة، باهتة...

كانوا يتحركون حركة سريعة منتظمة وكنا نفترش الأرض فــــى رضوخ..

صرخت فى وجه أحدهم : أين (أنا)؟

ولكنه نظر إلى فى ازدراء ولم ينبس ... تفحصته مليا، بدا فــــى العقد الرابع من عمره ضخم الجثة، منتفخ البطن، جاحظ العينين، أصلع تماما، وجه مستدير مائل إلى السمار به الكثير من الجروح القطعية العميقة.

همست فى خوف:

- لماذا وضعتونى فى هذه الغرفة التى تحوى الموتى؟

وفى سخرية شديدة نظر إلى ثانية شزرا ولم ينبس ... همس إلى أحد مفترشى الأرض **(طارق)** أن أصمت حتـــــى ينصرفــوا...

صحت به:

- أين (أنا) ؟ وكيف أتو بى إلى هنا؟ ومن أنت؟

- رفقا بى...

- أما عن أين نحن وكيف أتوا بك أو بأحدنا إلى هنا فلا أحد يدرى!!!

- و من أنت؟

- أنا زميل لك.. واحد من آلاف من رعاياهم!!!

فى دهشة بالغة قاطعته ثانية مواصلا تساؤلاتى:

- وما هذه الحجرة التى كنت بها؟

قال فى هدوء غريب:

- البداية دائما هكذا أن يضعوك فى مكان ليس بمكانك.

- لا أفهم !!

- قريبا سيتداركون الأمر ويذهبون بـــك إلـــى المكـــان الصحيح.

- صحيح !! صحيح ماذا!؟ أنا أود أن أذهب إلى بيتى.

وتدخل شخص ما ساخراً (غريب) :

- بيتك!!!

ثم تعالت ضحكاته فبدت فى البداية طبيعية ولكنها مـــا لبثـــت أن استحالت إلى ضحكات هيستيرية ، وبعد أن هدأت نوبة الضحك تلفت يمينة ويسرة ، وصرخ فى جموع الناس مـــن حولـــه فـــى

سخرية ممزوجة بالمرارة:

- أنظروا يا رفاق هذا الرجل يود أن يعود إلى بيته.

وتعالت ضحكاته ثانية ممزوجة بضحكات الجميع مجلجلة في الأرجاء.

همس لي طارق:

- هكذا هو دائما، فتارة يبدو ساخراً متذمراً من كل شيء حوله حتى من نفسه وتارة أخرى يبدو صامتا لا ينبس حتى بكلمة واحدة.

قدرتي على التعبير ضعيفة ... آخذةٌ في التضاؤل.

قدماي لا تقويان على حملي .. التعب الهائل يحتويني ... الانهيار الداخلي يداهمني.

عندما استدرت إلى الجموع الضاحكة:

- ما الذي يضحككم؟!

صدمتني ملامحهم .. ثمة شيء مبهم بها .. تحاملت على نفسي واصلت البحث .. صرخ في أحدهم . محتجا:

- عن ماذا تبحث؟!

وطأة الألم تغمرني .. أتهاوى .. أهمس بالاسم الوحيد الذي عرفته:

- طارق .. أغثنى.

ولكنه لم يغثنى.

- يدك معى.

ولكنه لم يمد لى يده مطلقا.

أهمس بصعوبة:

- أين يديك؟!

يصرخ فى ألم:

- ألا تدرك أننى بلا يدين!!!

غمرتنى دهشة بالغة.. بحثت عن يديه .. تفحصتهـــم جميعـــا..

كانوا بلا أيدى !!

صرخت فى فزع:

- أين ذهبت أيديكم؟!

(٣)

"الحديقة"

وجعلت الوفود تترى لأصحاب الملامح الباهتة.

كانوا يذرعون أرض العنبر جيئة وذهاباً .. يوزعون أنفسهم على الجماعات المختلفة منا.. وكان الرجل صاحب الملامح الوحشية يوجه الجماعة التى ألحقونى بها.

تطلعت خلسة إلى ملامحه الباهتة وكانت نظراتى تائهة، حائرة، خائفة، بيد أننى همست إلى أعماقى مهدئا من روعها: ماذا عساهم أن يفعلوا بى ؟! فليس هنالك ما هو أسوأ من ذلك.

كانت أبواب العنابر الحديدية عديدة، يمناً ويساراً، وكانت الجماعات الهائلة من البشر تتدافع خارجة منها، والحرس مدججون بالسلاح .... يحيطون الجموع بسوار من الخوف والتحذير... ونحن ندفع بعضنا البعض فى دهاليز طويلة مظلمة ثم نصعد درجات بعض السلالم بين الفينة والأخرى، وحسبت أن الطريق لن ينتهى ، حتى همس لى طارق:

- هكذا نحن كل يوم، نسير فى طرق مختلفة، ودهاليز مظلمة ولكن حتما سنصل إلى الهدف أو على الأقل

يحدونا أمل الوصول ، تـــارة نصعـــد، وتـــارة اخـــرى نهبط... حينا تخفت الإضاءة حتى لا نبصر موطئ القدم وحيناآخر تزيد حتى تبهر عيوننا.

سألت طارق في دهشة بالغة:

– ماذا يحدث هنا!

نظر إلى بفتورثم قال:

– كل ما يحدث لك حدث لنا جميعا.

صرخت:

– لا أفهم.

التفت إلى صاحب الملامح الوحشية ، وحدجنى بنظرة شـــريرة ملؤها التحذير وهمس غريب فى سخرية:

– ستفهم فى الوقت المناسب.

الدوار ... والأسئلة الحائرة ... والرأس المثقلـــة ... وضـــوء النهار الذى بدأ يتسرب إلى عينى حتى فقدت الرؤيـــة للحظـــات قصار، بعدها لاحت بوابة حديدية ضخمة وقد غرســـت خلفهـــا أشجار كثيفة.

وانطلقت الجموع إلى الخارج فى مرح ولهو غريبين، ورأيـــت الشمس وكأننى أراها لأول مرة وقد اعتلت عرشـــها فـــى كبـــد السماء .. فبدت وكأنها تغوص فى بحر من الألوان بيـــن قطـــع

السحاب المتدافعة، ترسل اشعتها البرونزيـــة كخيـــوط الذهـــب، تخترقها أسراب الطير الوفير التى بدت محلقة فـــى مجموعـــات بديعة التناسق.

عنابر وصالات ومطاعم وملاعب رياضية وحمامـــات ســباحة وطائرات مروحية عديدة وكأنها تحاصرنا من شـــتى الجهـــات وعربات مصفحة ومدافع وحراس مسلحون بـــأحدث الوســائل الحربية - غازات... وقنابل... مسدسات.. عصى وهـــراوات - كانت الحديقة شـــديدة الاتســـاع بزهورهـــا المتنـــاثرة الزاهيـــة وأشجارها الباسقة كأنها تخترق السماء.

عندما نظرت إلى الأعداد الهائلة من البشر تلاشت فى أعمـــاقى كل معانى الجمال، حتى موسيقا الطبيعة الرائعة التى كان صداها يتردد فى نفسى ما لبثت أن استحالت إلى نغمات كئيبة جنائزية، وبدت لى جموع الطير وكأنها حائرة، حتى تكثفت امام قـــرص الشمس فمنعتها من ارسال خيوطها الذهبية.

كان المشهد رهيبا!!!

أعداد هائلة من المقعدين وفاقدى الأذرع ومجموعـــات متنوعـــة أخرى!!

صحت فى فزع:

- ما هذا يا طارق؟

ولكنه صمت صمتاً مطبقاً وأشار إلى أن أعاود النظر.

عندما اصطدمت قدمى بكتلة طرية، نظرت بسرعة إلـــى أســـفل وهالنى ما رأيت.

كانت كتلة من اللحم البشرى...

فتاة!!!

بقايا فتاة... جسد بلا ساقين ... بلا ذراعين ... بلا عينين، حتى الأذنين تبدوان مبتورتين فى وحشية مفرطة.

وطرقتنى بشدة صرختها الهائلة التى إنفلتت منها إثر اصطدامى بها.

(٤)

"المشاهدة"

كان وجه الفتاة يفيض جمالاً وسحراً...

عينان خضروان... شعر ذهبى... قوام سمهرى رائع.

همست:

- ما اسمك ؟

كانت تنظر إلى فى تعجب ولكنها لم تنبس.

- إنك جميلة... جميلة جداً.

نظرت إلىّ فى ضيق ثم همت بالانصراف، صحت بها:

- إلى أين ؟

وعدوت خلفها كالمنوم... حاولت أن ألحق بها... كانت المسـافة بيننا تزيد وكان الزحام الشديد يمنعنى من الوصول إليها.

صرخت:

- يا فتاة.

إلا أنها لم تحفل بصياحى وغاصت بين الجموع المحتشدة.

وحيداً... حائراً... ضائعاً.

أطوف بين الجموع... أبحث عن شىء..!!

ما هو ؟ أين هو ؟ لا أعرف!!!

انتشلني طارق من حيرتي حينما صاح بي:

- إلى أين ؟!

همست في أعماقي متعجباً:

- حقاً إلى أين ؟!

جلست بينهم صامتاً خائراً..

أطرق طارق قليلاً وبعدها قال في أسى:

- لعلك الآن قد علمت لماذا وضعوك هنا ؟

واحتبس الكلام في فمي فلم أنبس للحظة حسبتها دهراً وأخـــيراً قلت له وأنا آكل أطراف الكلمات من فرط الهلع:

-إذن لقد وضعوني معكم لأجل...

واحتبس الكلام ثانية في حلقي فأشار بإيماءة من رأسه أن نعم.

همست في رعب:

- تقصد...

في بساطة مفرطة:

- لكي يفعلون بك مثلما فعلوا بنا.

وطرقتني إجابته طرقة هائلة رغم توقعي إياها،وحاول صغيري أن يصرف انتباهي إلى أي شيء آخر فقال:

– أنظر... إن كل شيء هنا يعمل بنظام، هذه مجموعة المقعدين وتلك مجموعة فاقدى البصر...

وجعل يشير إلى كل مجموعة برأسه وأنا مشدوه حائر، ولم يكن بوسعى سوى أن أتهالك على الأرض وأنصت إليه... أنصت إلى كل ما يحدث حولى... حدثنى عن الكتلة البشرية فقال:

– هذه أمل، أخذوا كلتا عينيها الجميلتين وقدميها وإحدى كليتيها والفص الأيمن من الرئتين و...

صحت به:

– كفى... كفى...

ثمة عجوز ضامر الجسد انتبه بغتة لوجودى فنهض من مكانه فزعاً ثم رمانى بنظرة سريعة مبهمة فبدت على وجهه كل علامات الخوف وكأنه أبصر شبحاً، حتى أنه تقهقر خطوتين إلى الخلف ثم انطلق مهرولاً بين الجموع مبتعداً عنا فى رعب وهو يصيح:

– ملامح باهتة... ملامح باهتة.

وظللت لفترة طويلة أعانى ألما شديداً كلما تذكرت ملامح وجهه المتقلصة فى خوف، المنقبضة فى فزع وكأننى كنت أحتوى كل خوفه أو حتى أشاطره فيه، ولو كنت أنا سر مبعثه.

وصاحت أمل فى وقاحة:

- لماذا تصرخ هكذا؟ ألم تـــر غـــيرى أم أنـــك غـــير مبصر؟!

وإلتفت طارق إلى هامساً:

- إن هذا الشيخ الهارب هو عم سالم... إنه طيب للغاية.

وتدخل (مسعد) قائلاً وهو غارق حتى أذنيه فى الضحك:

- ولكنه جبان... جبان جدا.

كان سالم كامل الأعضاء صحيحها، وقبل أن أهم بالاستفسار عن سر كمال أعضائه وجدتهم قد توغلوا جميعا فى حديثهم:

إن القدم هامة جداً ويكفى أنها تمكن صاحبها من السير بلا عون خارجى.

بينما تعالى صوت البعض معارضا:

- بل إن اليد هى الأفضل فهى ....

ولم يعد الأمر مجرد تشاور بين شخصين أو ثلاثة وإنما إتسعت حلقة المناقشة فشملت طارق ومسعد فى البداية ثم مجموعتنا كلها ثم ما لبثت أن ضمت أعداداً هائلة من المحيطين بنا، حتى أمـــل تلك الكتلة البشرية كانت محاورة بارعة بل ومن الطراز الأول، على الرغم مما بها من فظاظـــة فـــى اللســـان ووقاحـــة فـــى الإسلوب...

فقط ثلاثة أشخاص كان كل منهم يؤثر الصمت ويحمده لنفسه...

غريب ذلك الساخر العابث...

وعاكف ذلك الذى يحمل معه دائما آلة موسيقية تشبه الناى، كان يتشبث بها وكأنها قطعة منه، وهو صامت لا ينبس إلا بنغمات حزينة عميقة تنبعث من ألته وكأنها تأتى من أعماق زمن غامض سحيق، و(أنا)!!!

نعم أنا.

وانقسم المتشاورون إلى عدة مجموعات....

كانت كل مجموعة منهم تؤثر مالا تملكه من الأعضاء على ما تملكه منها.

وهمس غريب ساخراً:

- هكذا الإنسان دائماً لا يدرك قط قيمة الشيء، إلا بعد أن يفقده.

بيد أنه لم تخل المجموعات من بعض الأصوات المعارضة كمسعد الذى فضل ما يملكه على الذى فقده من الأعضاء.

وهمس طارق:

- إن مسعد إنسان أحمق كثير الضحك، يأخذ الحياة دائماً بمنظار اللهو والمرح، متمسك بها إلى أبعد الحدود ... لا يعنيه من أمر هذه الدنيا سوى رسوماته التى دائما ما

تكون ساخرة، فهو ينقل كل ما يراه أمامه ويحسه بريشة رسام ماهر، أحياناً قد تظهر شخصياته المرسومة فـــى صورة مبالغ فيها، ولكنها لابد أن تكون صادقة.

وهمست فى أعماقى: ربما يكون هذا الأحمق هو أحكمنا جميعاً.

وجعل أصحاب الملامح الباهتة يدفعون العديـــد مـــن المنـــاضد المتحركة التى تحوى كميات كبيرة من الأكياس والحقن وقطـــع القطن وأشياء طبية من هذا القبيل ...

وتعالت دقات قلبى وأصابتنى رجفة شديدة حين وضع أحدهـــم سن الإبرة فى ذراعى.

وصاح مسعد فى مرح غريب:

- سنتناول اليوم طعاما شهيا...

وطفقوا يدفعون بالحقن فى أجساد البشر المختلفة ... كانوا جميعاً قابعين فى خضوع واستسلام عدا شخص واحد، مـــلأ المكـــان صياحاً وضجيجاً وكأنه أصيب بمس من جنون... كان يصيح فى رعب:

- دعونى ... لا شأن لأحدكم بى.

ونهض طارق بسرعة وهو يصيح بأفراد المجموعة:

- هذا هو سالم يجب أن نهدىء مـــن روعـــه قبـــل أن يتعرض لعقاب شديد.

أمل:

- ولكنه جبان غبى.

غريب:

- لماذا يحدث كل هذه الضجة؟

طارق:

- وذلك على الرغم من كونه واحداً من أصحاب الـــدم الذهبى.

مسعد:

- ياله من أحمق ألا يتمتع أبداً بمذاق اللحم الشهى الذى يوزعونه علينا فى هذا اليوم.

كان الإعياء المفرط يتسرب إلى داخلى، وكان الإرهاق المقرون بخمول شديد قد بدأ يحتوينى... لم تكن حقنة ولكن شفاطة لسحب الدماء ...

كانت الكمية التى يسحبونها منى كبيرة... وكان الـــدم الأحمـــر القانى يتدفق منى بغزارة عبر الأنبوب المطاطى الشفاف...

كدت أتهاوى فى موضعى ... كان الهبوط الشديد يموج بداخلـــى .. وكنت كمن يتأرجح على حافة الهاوية.

(٥)

"مجرد إنسان"

كانت جموع البشر من حولى مصطفة فى ترتيب غريب!!!

إضاءة خافتة ضعيفة وصيحات خوف واستكانة وتكوينات عجيبة حية أو ميتة...

فى ذعر ينتفض جسد طارق...

فى هيستيرية يضحك مسعد...

وغريب صامت خائف...

وعاكف ثابت لا يهتز...

وأمل تبكى من الهلع...

وسالم ويبدو وكأنه قد أصيب بمس من الجنون، كان جسده ينتفض بشدة يتخبط فى الجموع المصطفة بينما يهوى عليه أصحاب الملامح الباهتة بقبضاتهم وركلاتهم المتتالية.

كانوا يضربونه بقسوة وهو يصرخ فى ألم وقد إمتلأ فمه بزبد أبيض:

– دعونى ... دعونى.

بينما يصيح مسعد به:

- أيها الغبى إنك واحد من أصحاب الدم الذهبى فماذا تخشى؟!

والتفت إلى طارق مشدوها:

- ماذا يحدث هنا؟!

- أصمت يا عزيزى أنت لا تعرف أى شىء .

الحيرة المروعة وملامح طارق الصبى الذى لا يتجاوز السادسة عشرة من الأعوام بأى حال من الأحوال وكلماته التى تدل على فطنة وذكاء الكهول من الحكماء والصيحات التى تتعالى والأفواج المتدفقة من أصحاب الملامح الباهتة!!!

صحت فى فزع:

- من يكون هذا السالم؟

- سالم هذا مجرد إنسان لا يعنيه من أمر هذه الدنيا سوى كلماته وأشعاره.

فى دهشة:

- أشاعر هو؟!

- إنه إنسان خائف لا يستطيع سوى أن ينبس ببضع كلمات يصوغها بدموعه وأشجانه وكأنه يبكى... نعم إنه لا يقول الشعر، ولكنه يبكى!!!

يبكى العالم كله...ويرثى لحال نفسه ولحال كل من تلقى كلماتـــه في نفوسهم المتعبة صدى.

واصطدمت رأس سالم بالحائط وسالت الدماء الغزيرة من أنفه.

قال غريب:

- الآن سيختارون واحدا منا.

وقالت أمل في رعب:

- اختيارى يعنى هلاكى.

وهمس طارق:

- عساهم أن يختاروا من أى مجموعة أخرى.

صحت في فزع:

- يختارون ماذا؟

القلق ... الخوف... الفزع... الرعب، وخطواتهم التى تقـــترب منى... لبثوا في مكانهم أمامى... جعلوا يفحصون بضعة أوراق كانت لديهم.

صاح طارق:

- لا شأن لكم بنا.

وهمس غريب في سخرية بالغة:

- مرحباً بالأصدقاء.

وراح سالم فى غيبوبة سحيقة، ولبث عاكف صامتا لا ينبس حتى
نايه وضعه جانبا وظل يرقب الموقف.
عندما أشار إلى أحدهم أحسست برجفة مروعة، تداعيت علـــى
الأرض منهكا تماما... كانت دقات قلبى سريعة ... مجنونة.
صرخت:

- دعونى!!!

بيد أنهم كانوا ينشدون مسعد ... وشعرت عندئذ بدبيــب الحيــاة
وكأنه انبعث من جديد فى شتى أوصالى.
كان مسعد يرتجف بشدة ... يبكى ... يصيح ... يصرخ وكأنـــه
يعوى.
قال له طارق فى عطف حقيقى:

- تمالك نفسه.

وهمس غريب:

- لا جدوى من المقاومة وفر طاقتك للعملية ذاتها.

بينما صاحت أمل:

- حمداً لله لقد نجوت.

وتشبث مسعد بقدمى:

- أنقذنى ... أرجوك!!

وأحسست بعجز مقرون بحزن مفرط...

كانوا يجذبونه بعنف ، بينما يتلوى على الأرض ممسكا بى، يعوى فى ألم .. أمسكت به بقوة صائحا:

- دعوه أيها المجرمون.

هوى واحد منهم على وجهى بصفعة قوية، أفقدتنى للحظات فصار السمع تماماً.

صاحت أمل بى :

- دعه يا أحمق فلا جدوى مما تفعله.

وقال غريب فى مرارة:

- لن يتركوه مهما فعلت.

وأردف طارق :

- دعه حتى لا يأخذونك معه.

وصاح مسعد:

- أنذال ... جميعكم أنذال.

متشبثا بقدمى وذوات الملامح الباهتة يسحبونه ... يجرونه على الأرض جراً وهو يردد فى ألم :

- أرجوك ... أرجوك لا تتركنى.

واعتصر الحزن قلبى اعتصاراً حقيقياً حتى أننى صحت بهم فى غضب:

- دعوه.

ولما لم يلتفتوا إليّ داهمتنى حفنة من الشجاعة فجذبته بقوة مقاوما إياهم إلا أن قبضة أحدهم هوت سريعة مباغتة قوية فوق مؤخرة رأسى.

وهمست إلى أعماقى فى ألم وهم يواصلون سحبه، بينمـــا كنـــت أتهاوى:

- وما حيلتى يا صديقى إننى مجرد واحد منكم!!!

مجرد إنسان.

(٦)
"غثيان"

تتداخل الخطوط...

الألوان ... الأشباح الهمجية والملامح الباهتة وحلقات الدهشـــة والغموض التى لا تكف لحظة عن الدوران فى دائرة ســـرمدية من لايدرك قط بدايتها حتما لن يعرف نهايتها.

همس غريب:

– إذا كنت تريد أن تنعم بالحياة بيننا فعليك ألا تؤمن بأى شيء.

صرخت فى ضيق:

– **أحقا قد فقدتم إيمانكم بكل شيء؟**

صاح طارق معترضاً:

– لا يا صديقى نحن لسنا كذلك.

ولكن غريب أصر فى تحد:

– بل إننا فقدنا حتى إيماننا بأنفسنا.

وإلتفت سالم إلينا فى جزع:

– أرجوكم ... أرجوكم إخفضـــوا مـــن أصواتكـــم وإلا

غادرتكم.

صاحت امل فيه بقسوة:

- كف عن جبنك هذا.

انقبضت ملامح وجه سالم .. وإنصرف غاضبا ساخطاً إلى رفاق مجموعته .

طارق:

- ليس علينا أن نصيح دائما فى وجهه أنت جبان وبسبب جبنك هذا لم تفلح فى تأدية أى عمل قط.. ليس علينا أن نفعل هذا أبداً...

أمل :

- ولكن هذه هى الحقيقة.

غريب:

- كلنا نخشى الحقيقة.

أمل:

- إلا عاكف.

غريب:

- ألأنه غارق دائماً فى عزف موسيقاه الحزينة؟

طارق:

- أنه أول الخائفين.

وتسربت إلى أنفى رائحة الطعام نفاذة قوية...

شرائح من اللحم ممتازة الطهى، وقطع من البطاطس المحمـــرة، بجوار كمية لا بأس بها من السلطة الخضراء، وطبق من الأرز، وثلاث حبات من الخوخ الطازج.

جعلت ألتهم الطعام فى شراهة، خاصة قطع اللحم الشهية التى لم أذق لها مثيلا فى حياتى من قبل، علمت من طارق فيما بعد أنهم نادراً ما يقدمون هذا النوع من اللحم الشهى.

ما فتأت عينا عاكف تتابعنى فى ريبة.

طارق:

- لا تفكر كثيراً وقريباً ستتضح لك شتى الأمور.

وانخرطت المجموعات المختلفة منا فى تناول الطعام، وتملكتنـــا برهة من الصمت، قطعتها بسؤالى:

- لماذا سحبوا منى كل هذه الكمية من الدم؟

قال طارق بينما نظرات عاكف المريبة لا تزال تحاصرنى:- يبـــدو أنك من أصحاب الدم الذهبى.

فى دهشة:

- ذهبى !!!

- إنهم أصحاب الفصائل النادرة من الدم أمثال سالم.

كانت قطع اللحم فى إناء طارق مقسمة إلى قطع صغيرة بيد أننى أحسست بالمجهود الهائل الذى يبذله أثناء تناوله للطعـــام، ذلـــك المجهود الذى كان لابد أن يذكرنى بالحديث السابق عن أفضـــل الأعضاء البشرية.. وأنفعها للإنسان، ذلك الحديث البسيط بساطة مذهلة، وكأنهم كانوا يتحدثون عن تشكيلة من الفواكة فهذا يفضل اليوسفى وذاك يفضل الكمثرى.

واقتربت من طارق محاولاً أن أقدم له يد المعونة ولكنه قال لى فى حسم:

- أرجوك لا تحاول مساعدتى.

همست فى رفق:

- دعنى أقدم لك بعض المعونة.

إلا أن غريب تدخل قائلاً:

- أتركه وشأنه حتى لا يعتاد على مساعدتك.

ثم أردف فى أسى:

- التى قد تمتنع عن تقديمها لـــه فـــى أى لحظـــة مـــن اللحظات.

فصحت به:

- ولكننى لن أمتنع قط عن تقديم المساعدة إليه.

فقال غريب فى جدية مشوبة بسخرية مريرة:

- وإذا لم يكن الأمر بإرادتك، أعنى إذا جاءت اللحظة التى تحتاج فيها أنت إلى المساعدة؟

وأحسست بانقباض شديد، وبضيق مفرط وهمست بصعوبة:

- إن هذا اللحم ممتاز.

ابتسم طارق قليلاً وقال:

- طبعاً.

وضحك غريب حتى آلمته معدته ثم قال:

- وكيف لا يكون ممتازاً؟!

بعد أن نظرت إلى وجه عاكف اللامبالى وهو يواصل عزفه على آلته الموسيقية قلت فى تعجب:

- لا أفهم!!

صاح غريب فى سخرية مقرونة بالبساطة البالغة:

- أهنالك أفضل من لحم الإنسان؟!

تعالت دقات قلبى...

شعرت بألم شديد فى معدتى...

كادت الأرض تميد بى...

حاولت أن أتقيأ.. أن أفرغ كل ما فى معدتى على دفعات متتالية.

(٧)
"أنا وأنت"

كان العنبر فسيحا لا يحوى سوى المراتب القذرة.

همس طارق:

- هذه تخصك.

تحسستها فى امتعاض شديد .. أردف فى رفق:

- غداً ستعتاد كل شىء.

صحت به:

- أريد إجابة واحدة لكل ما يحدث حولى.

- لا تنس أنك تحقن بالكثير من العقاقير الطبية حتى تعتاد الوضع الحالى وتصيبك حمى اللامبالاة بالعدوى.

- فيروس اللامبالاة.

- إنه فيروس سريع الانتشار.

صاحت أمل:

- أخفضوا من أصواتكم لأستطيع النوم.

التفت إلى طارق وسألته متعجبا:

- أيوجد فى هذا العنبر أمثال أمل؟!

- الحالات الخالصة توزع على شتى المجموعات.

في دهشة:

- خالصة؟!!

في هدوء:

- قريباً ستدرك أشياء كثيرة بنفسك.

- ...

في عطف حقيقي:

- أخائف أنت ؟!

في ضيق:

- على الأقل لست مثل سالم.

- أتدرى.. إن سالم هذا في غاية الذكاء.

في تعجب:

- ولماذا يطارده الفشل حتى أضحى رمزاً له؟

- لأنه يخشاه.

في سذاجة:

- يخشى ماذا؟

- يخشى الفشل إلى الحد الذى جعله يفشل فعلا في كـــل شيء.. مما جعله يتخذ من الهرب وعدم المواجهه قاربا للنجاة.

وأردفت أمل وكأنها تتابع الحديث:

- ومن الهرب إلى الجبن ومن الجبن المترسب في أغوار نفسه إلى الفشل ومن الفشل إلى الهرب وهكذا دواليك.

- وهل هناك تشابه بينه وبين غريب أو مسعد؟!

- مسعد رسام... كل رسوماته مبالغ فيها.. إنه يرسم الناس وكأنه لا يرى سوى أخطائهم فهو يضخم عيوبهم وكأنه يسبهم ولكن بإسلوب رقيق.. خفيف الظل... إنه يجد في هذا متعة غريبة.

أما غريب فهو كاتب... يكتب منذ نعومة أظافره، يكتب كل ما يحسبه حقيقيا، يكتب كل ما بداخله من آلام وأحزان ورؤى ساخرة لكل ما يحدث حوله، يكتب كل ما يراه صوابا أو يشعر به يخرج من أعماقه بتلقائية وعفوية دون أي تكلف أو اصطناع أحمق.

إن غريب على النقيض التام من مسعد، فالأول يأخذ الحياة بمأخذ الجد والثاني يأخذها بمأخذ اللهو والعبث.

أمل:

- ولكن كلاهما يسخر منها.

وهمست فى أعماقى متعجبا:

- واحد بلغ به حد المرح إلى السخرية وأخر أوصلتـــه الجدية إلى نفس الهدف وكأننا نسير فى طريق واحد إلى هدف واحد، ونهاية واحدة، محتومة.

قلت بصعوبة:

- إنكم... إنكم جميعاً...

أمل:

- إننا ماذا؟!

فى حدة:

- لماذا كل هذا الاستسلام؟! كل هذا الخوف؟

كل هذا الجبن؟ بعضكم يهرب بالموسيقا،أو بالرسم والبعـــض الأخر يسخر ويتهكم ودون ذلك لا يفعل أى شىء.

أمل:

- ألا ترى كل هذه الأسلحة التى تحيط بنا؟

ألا ترى كل هذه الأخطار؟

أم أنك غير مبصر؟!

وشعرت بالحنق الشديد نحو تلك المرأة المتعجرفة وكدت أهــوى بيدى على وجهها، ولكننى عندما نظرت إليها أحسست برجفـــة

خفيفة.. بيد أنها صاحت بى وكأنها ترانى:

- لماذا تنظر إلى هكذا ؟ ألم ترّ راقصة من قبل؟!

صحت فى دهشة:

- راقصة!!؟ أنت راقصة!!!؟

نظرت أمل إلى فى ضيق ثم قالت:

- وماذا فى الراقصة؟!

ولم يكن فى وسعى سوى أن أضحك .. وغرقنا جميعاً فى دوامة من الضحك الخافت خشية إيقاظ باقى أفراد العنبر.

سألت طارق:

- ولكن لماذا يخشانى سالم؟! إن ملامحه تضمـــر لـــى خوفاً أو بغضاً.

فقالت أمل:

- ربما يظنك واحداً من أصحاب الملامح الباهتة.

وهمست فى سخرية:

- ومن أدراك أننى لست واحداً منهم؟!

انتبهت حواس أمل بغتة ونظر إلىَّ طارق فى دهشة فأردفت بسرعة:

- أنا أوأنت هو أوهى!!!

(٨)

"فقط عقلى"

- أنت !!!

- ...

- كيف جئت إلىهنا ؟!

- ...

- لماذا فررت منى فى المرة السابقة ؟!

- ...

- تكلمى.

- ....

- يبدو أنك تعبثين بى ولكنك حتماً لا تعرفيننى جيـــداً، فأنا لا أحب اللهو، أو العبث الفارغ حتى وإن كان مـــن فاتنة مثلك.

وبعد لأى همست الفتاة بارعة الحسن وهى تبتسم ســـافرةً عـن أسنان لؤلؤية:

- إنى لا ألهو أو أعبث بك، كما أننـــى أعرفـك تمـام المعرفة.

فى انفعال:

- أخيراً تكلمتِ... ما اسمك ؟

- اسمى لا يهمك فى شىء.

- ماذا تريدين منى ؟

أضيئت الأنوار بغتة ودوى جرس الإنذار، وإستيقظ كل أفراد العنبر إلا أنهم لبثوا فى أمكانهم ساكنين هادئين وكأن على رؤوسهم الطير.

قال طارق:

- يبدو أن هناك عضواً جديداً.

أمل:

- على الرحب والسعة.

وتدفقت قوات الحرس مدججة بالسلاح تليها شرذمة ممن يدفعون أحد الأسرة المتحركة.

كانت القلوب واجفة... والأعين متربصة، متطلعة إلى زوار الليل وما يحملونه معهم وما أن مضى آخر واحد منهم حتى إلتف أفراد العنبر جميعهم حول سرير العضو الجديد.

ومددت يدى فى فضول رافعاً الغطاء عن وجهه.

وصاح طارق فى دهشة:

- مسعد !!!

ونزعت الغطاء من فوقه إنتزاعاً...

قدماه سليمتان... الأذنان... الأنف...

همست:

- ربما أخذوا إحدى عيناه أو كليهما.

وحرك مسعد رأسه وهمس في إعياء:

- ماذا تفعلون ؟!

كنا متحلقين حوله، نتحسس جسده وكأننا نبحث عن العضو المفقود.

قالت أمل:

- أخيراً عدت إلينا يا أحمق.

وغرق مسعد في نوبة من الضحك وكأنه أصيب بمس من الجنون إلا أنه شعر بألم في رأسه فقال وهو يغالب الضحك:

- حمداً لله لم يأخذوا مني أي شيء فقط...

- فقط ماذا ؟

وأردف مسعد في بساطة مذهلة:

- فقط عقلي !!

(٩)
"الغضب"

التعب الهائل والثور الذى يدور فى ساقية لا تتوقف قـــط عــن الدوران. والأنفاس المقطوعة، والأجساد المشوهة... العاريــــة، الممددة فى استرخاء أمام حوض الســـباحة، وأشـــعة الشـــمس الحارقة تلفح الوجوه وتداعب نسمات الهواء الرطبـــة، النديـــة، المشبعة بقطرات المياه المتناثرة وصياح ولهو أصحاب الدمــــاء الذهبية والأعداد الهائلة من الحرس التى تحاصر حوض السباحة الممتد وكأنه نهر صغير...

كانت الفكرة قد اختمرت فى ذهنى تماماً حتى أننى صحت فـــى طارق:

- الهروب.

ونظر إلىّ طارق فى لا مبالاة ثم همس:

- هذه كلمة غريبة.

- ما الذى يدفعكم إلى البقاء هنا ؟!

هرول سالم هارباً من بيننا وهو يتمتم فى خوف:

- مستحيل.

صحت به:

- جبان

وواصل طارق في هدوء:

- لا يمكن...

- هذا تشاؤم شديد.

سألت أمل في تعجب:

- ولماذا نهرب ؟!

- لأجل... لأجل أشياء كثيرة... دفاعاً حتى عن أنفسنا..
عن أعضائنا... لأجل الحياة.

غريب:

- الحياة.

قالها في دهشة ثم واصل في أسى مفرط:

- إننا مطرودون منها.

- لا أحد يطرد منها سوى الموتى.

غريب:

- تماماً.

في أسى:

- أرجوكم.

مسعد:

- يا عزيزى لقد حاولنا كثيراً وفكرنا من قبل عدة مرات فى محاولة الهرب ولكننا فى كل مرة كنا نحجم عن تنفيذ الخطة.

- لماذا ؟!

طارق:

- لأنها مغامرة شديدة الخطورة، نسبة نجاحها منعدمة كما أن الفشل فيها يعنى...

- يعنى ماذا ؟ ليس هنالك أسوأ مما نحن فيه.

أمل:

- بل هنالك ما هو أسوأ !!!

وأكمل مسعد فى بساطة:

- غرفة التعذيب.

طارق:

- لعلك لم ترها بعد وليتك لا تراها قط.

أمل فى رعب:

- إنها الجحيم نفسه.

وهمس طارق فى أسى مفرط وهو يحملق فى وجهى:

- لقد ولدت هنا.. ونشأت هنا.. حتى أمـــى وأبـــى وإن كنت لا أعرفهما إلا أنهما بالتأكيد هنا، فى هذا المكان.

وصمت هنيهة ثم أردف:

- فإذا كنت تريدنى أن أهرب فلماذا؟

هل لأعود إلى وطنى؟ إلى أهلى ؟

إذن فلتعلم جيداً أن هذه هى أرضى وهذا هو واقعـــى وأن كـــل الذين هنا هم أهلى.

صحت به:

- إذن أنظر إلى واقعك نظرة صادقة إنه واقع بشع فظيع مر مرارة العلقم.

وصاح طارق فى حدة:

- ولكننى ابن لهذا الواقع... نعم أنا ابن لهذا الواقع بكل ما يحمل من مساوىء ومتناقضات ولا ولن أســتطيع أن أنكر قط أبوته لى.

- ولماذا لا تحلم بواقع أفضل؟

- الحقيقة أم الحلم؟

- بدون الحلم تتشوه صورة الحقيقـــة ويســتحيل علينـــا فهمها.

- ولكن الحلم أبداً لن يستطيع أن يحتل مكان الحقيقة، فالحقيقة ثابتة لا تتغير ولا يجروء أحد على نكرانها.

وتدخل غريب فى الحديث الذى يبدو أنه قد تطايرت إليه بعض كلماته:

- الوهم... الحلم... الحقيقة... أيها الأحمق إنك لا تستطيع أن تفرق بين أى واحد من الثلاثة لأنهم جميعاً يصبون فى بوتقة واحدة.

كان وجه طارق شاحباً مرهقاً وكأنه ينم عما يصطرع فى أعماق نفسه من آلام وأحزان، وشعرت وكأننى أراه لأول مرة، فهمست إليه متجاهلاً تلك الفلسفة الغريبة:

- لا عليك يا فتى فلتبقى هنا، ولتفعل ما تريد.

وتدخلت أمل قائلة موجهة حديثها الىّ:

- عساك أن تكون من أصحاب الدم الذهبى.

ولكننى أردفت فى إصرار:

- حتى هذا لن يغير من موقفى.

وقال غريب فى تهكم:

- ستكون عضواً فى أفضل طبقات هذا العالم.

جلست ألتقط أنفاسى على أريكة ممتدة بطول حوض السباحة...

راودتنى عدة أفكار خبيثة ولكنها واقعية، واقعية جداً...
عالم من الحمقى يرفضون فكرة الهرب، أحدهم يتمسك بـــالواقع رغم مساوئه مدعياً أنه ابن له وآخر يفر كالمذعور ويجبن حتى عن مجرد الحديث بينما حمقاء تتمسك بأهداب الحياة وهى شـــبه ميتة، وتخشى على نفسها من المخاطرة بينما هـــى لا تملـــك أى شىء تخاطر به.

ماذا أفعل ؟!

أأستطيع وحدى الهرب ؟!

أى عضو سيسلب منى ؟!

أى مجموعة سيلحقوننى بها ؟! فـــاقدى الأيـــدى، أم القـــدم، أم البصر؟!

كان الضيق الشديد يملأ جوانحى حتى أننى صرخت فى الجموع المحتشدة حول حوض السباحة:

- ماذا يحدث هنا؟!

لم يعيرنى أحد أدنى إهتمام ... صرخت ثانية فى انفعال شديد:

- أين (أنا)؟

اندفع طارق إلى:

- تمالك نفسك.

ولكننى اندفعت كالثور الهائج. اضرب. اصفع ... ألكم بقـــوة كل من تسول له نفسه أن يقف أمامى ... كنـــت أصيـــح بهـــم مكررا:

- أين (أنا) ؟.. أين (أنا)؟ .. أين (أنا)؟

وانطلق الجميع إلى عنابرهم فى خوف مشوب بالفزع ولم أجـــد واحدا أمامى سوى طارق وغريب.

صرخ طارق فى وجهى:

- إهدأ يا مجنون.

وصاح غريب:

- لن نستطيع منعه من ثورته.

وقال طارق فى حدة:

- يجب أن تصمت.

وهمس غريب فى أسى:

- لو كانت لى يد لكنت منعته.

وجعلت أحطم كل ما أجده أمامى وأنا أثرثـــر وأتمتـــم وأصيـــح بكلمات غير مفهومة، حتى تدفقت أعداد كبيرة من ذوات الملامح الباهتة ... كانت تقترب منى ... تتدافع نحوى... نظرت فى فزع إلى وجوههم... استدرت فى رعب إلى طارق وغريب ولكننى لم أجد لهما أى أثر ... صرخت:

- إتركونى.

ولكنهم أحكموا حصارهم حولى... تعالت صرخاتى:

- لا لن تسلبونى شيئاً..

ولكنهم أمسكوا بى فى عنف ... حاولت أن أفلت من بين ايديهم ... دفع أحدهم بسن إبرة فى ذراعى فأحسست على الفور بثقـــل شديد فى رأسى ثم سقط بين ايديهم اللعينة.

(١٠)

"المحاكمة"

دوى صوت الحاجب فى القاعة الواسعة مجلجلاً:

- محكمة.

وقف جميع الحاضرين فى خشوع وأدب مفرط !!!

ساعة المحكمة ذهبية ... تبهر الأعين ... موضوعة فوق بـــاب القاعة الضخم، دققت فيها .. أدركت لتوى أنها لا تعمل.

الإضاءة المتماوجة التى تغمرنا بكميات هائلة مـــن الإشـــعاعات الحمراء أو الصفراء تنبعث فجأة ثم لاتلبث أن تنعدم تماماً

قفص الإتهام الحديدى يعلو ثلاث درجات عن أرضية المحكمة.

المقاعد الخشبية واضح بها أناقة الذوق الكلاسيكى.

ملابس الحاضرين أيضاً كلاسيكية عتيقة وكأنها لنبلاء العصـــور الوسطى.

صاح الحاجب منادياً:

- المتهم الأول (غريب).

سيدى القاضى: إننى رجل قلمه هو سلاحه الوحيد الـــذى دومـــاً يشهره فى وجه إحساسه بالألم والضياع.

سيدى القاضى: أنا كاتب .. نعم كاتب لا يكتب سوى مـــا يـــراه صوابا،ما يحس أنه يخرج من داخله بتلقائيـــة وعفويـــة دون أى تكلف أو اصطناع أحمق

أسخر، نعم أحيانا أسخر ولكن كل سخريتى لم يوجهها ســوى قلمى، فأنا لم أشهر يوما خنجرا فى وجه أحد ممن أخذوا منـــى كل شيء ولم يتركوا لى سوى سن قلم مكسور.

سيدى القاضى: هل تهمتى هى أننى مارست حريتى فـــى تلـــك المساحة الضئيلة من الورق؟!

هل جنايتى هى غوصى فى أعماقى المتعبة ثم الخروج ببعـــض الكلمات الساخرة التى يتداولها بعض الناس.

نعم كانت لى أسرة صغيرة..

امرأة تحبنى ولا أدرى لماذا تحبنى بكل هذا الجنون، كانت تؤمن بى، بل وتحسبنى فارساً آتياً لها من زمن بعيد، وكان لـــى ابنـــة صغيرة، يقينها الوحيد أننى أعظم أب.

فهل هى مأساة أن يكون لى زوجة تحبنى وابنـــة لا تـــرى فـــى الكون كله من هو أعظم من أبيها؟

أم أن المأساة الكبرى هى أن تكون لى كلمة حقيقية أنحتها بقلمى؟

المتهم الثانى (طارق).

سيدى القاضى: أنا ابن لهذا الواقع، ولدت هنا، ونشأت هنا علـــى هذه المساحة من الكون، لا أعلم لى أباً أو أماً، ولكن يقينى أنهما هنا معى.

أما عن أين هما أو من هما؟

فهذا ليس شأنى.

أنا لا أستطيع أن أنكر بنوتى لهذا العالم كله مهما كانت به مـــن حماقات أو مساوىء ، فتلك هى حياتى أنا، ومشكلتى أنـــا التـــى أحاول دائما إيجاد حل لها.

سيدى القاضى:

هل هى مأساة أن تعترف أنك ابن لهذا الزمان والمكان؟

أم أن المأساة الكبرى هى أن ترفض كل شىء سوى أن تواجـــه الآخرين بما تراه وتؤمن به كحقيقة مطلقة؟

المتهم الثالث(أمل).

سيدى القاضى: أنا راقصة.. ولا أرى فى الرقص أى غضاضة.

الرقص ليس مشكلة أو كارثة إنه وسيلتى الوحيدة فى التعبير.

فأنا أعبر بجسدى عن الحقيقة التى أبحث عنها!!!

أرقص وأرقص وأرفض أن أكف عن الرقص يوماً.

جسدى جميل، وأعلم أنه شهى أيضا...

رشيقة وعيناى شقيتان، وشفتاى غليظتان بهمـــا نــداء غريـــب، شعرى ذهبى ناعم كالحرير، لى صدر ناهد كبركان **يوشك على** الإنفجار وساقان**مرمريتان**ساحرتان.

كل من شاهد رقصى .. غاب عن دنياه وسافر معى **إلى** عـــالم آخر،ساحر عجيب.

عشقنى الكثيرون، داروا **حولى وخلفى، طاردونى فى كل مكان،** ولكننى لم أعط **أحداً** منهم مفتاح دنيتى الساحرة.

لم يكن يعنينى يوماً سوى أن أرقص وأرقص ولا أكـــف عـــن الرقص يوما.

فهل مأساتى هى أننى لم أكف يوماً عن الرقص، أم لأننى لم أفتح باب دنيتى قط لأحد ممن طرقوه وواصلوا الطرق؟

المتهم الرابع (مسعد).

سيدى القاضى : أنا لم أسيء إلى أحد يوماً، فأنا دومـــا ضـــاحك أحيا بمنطق الغد أفضل من اليوم... فهل هـــى مأســـاة ســـيدى القاضى أن تحب الحياة أيا كانت؟!

إن متعتى هى أن أتأمل ما حولى ثم أنقله على لوحاتى كما تـــراه عينى، كما أراه من داخلى بدون أى رتوش أو إضافات.

أحببت يوماً فتاة وأنا لا أعلم حتى الأن إن كانت قد أحبتنـــى أم أننى كنت مجرد لعبة مسلية لا تمل منها ولا تود أن تفقدها أبداً،

وأنا مع ذلك لم أسمح لنفسي يوما أن أجبرها علـــى الاعــتراف بالحقيقة.

فقط كان يكفيني بعض اهتمامها.

فهل هي مأساة أن تحب امرأة وهي لا تحبك؟!

هل هي كارثة أن تحول كل شيء حولك إلـــى مجــرد دعابــة يضحك الناس لها في صورة كاريكاتورية جذابة؟

أم أن المأساة الحقيقية هي أن تلقى بكل خطواتك وألوانك التـــي تخرج من داخلك في وجه الناس، ولا يهمك أن تصدم أحدا بقدر ما يهمك أن تكون صادقاً مع نفسك أن تضحكهم علـــى أنفســهم ونفسك.؟

المتهم الخامس (سالم).

سيدي القاضي: أنا لا شأن لي بكل ما يحدث حولي، لا يعنينـــي من أمر هذه الدنيا سوى شعري، فأنا كما يقول عني الآخـــرون شاعر، وفي الحقيقة ما أنا سوى إنسان مُتعَــب خــائف، يتمتــم ببعض الكلمات وكأنه يبكي.

سيدي القاضي: إنني لم أهجُ أو أسب أحداً يوماً وليس لي في هذه الدنيا العريضة سوى أمي، وهي امرأة عجوز كنت أنا وحيدهـــا وصارت هي مع مرور الأيام الأم والأخت والصديقة.

فهل مأساتى أن لى أماً أرعاها وأحبها ولا أرى فى العالم كله من صديق لى سواها؟!

أم أن المأساة الحقيقية هى كلما تـــى التـــى أصوغهـــا بروحـــى وإحساسى وأعماقى، بدمى ودموعى وأشجانى؟!

هل هى مأساة أن يلتف الناس حولك يسمعون نداءاتك الجريحـــة وأوجاعك وآلامك؟!!

إننى لا أقول الشعر وإنما أبكى، أبكى العالم كله، أبكى أفكـــارى ومعتقداتى البالية وأرثى لحالى ولحال كل من تلقى كلماتى فـــى نفوسهم المتعبة صدى.

فهل هى مأساة أن يسمعك الناس ويلتفون حولـــك ... أن تبكـــى ويبكى معك كل من يسمعك وهم فى الحقيقة يبكونـــك ويبكـــون أنفسهم؟!

المتهم السادس (.......) !!!

رفع القاضى صوته فى حدة:

- ما هو دفاعك عن المتهم؟!

دققت فى ملامح القاضى ملياً فأصابتنى رعدة خفيفة..

كان الأصلع ذو البطن المنتفخ، صاحب الوجه الوحشى الباهت.

حدجت مساعديه بسرعة، وجدتهم أيضاً من أصحـــاب الملامـــح الباهتة.

تنبهت بغتة أننى المحامى... حاولت أن أتماسك ... أن أهم بإلقاء مرافعتى.

عندما نظرت إلى المتهم لم أستطع أن أتبين ملامحه .. تساءلت فى دهشة بالغة:

- عن من أدافع إذن؟

أصابتنى حيرة شديدة.. عصف بى ارتباك لعين .. انعقد لسانى عن الحديث تماماً ولكننى همست فى أعماقى متحدياً: لا يهم... المهم أننى سأقوم بإلقاء مرافعتى.

قبل أن أهم بالمرافعة دققت فى وجوه الحاضرين.......

طارق وأمل وغريب وسالم وعاكف ومسعد وآخرين لم أتبين ملامحهم، كانوا جميعاً ممسكين فى حزن بالغ لأعضائهم البشرية التى سلبت منهم.

بغتة غمر المكان ضوء أصفر باهت... هممت بإلقاء مرافعتى...

صاح القاضى الأصلع:

- أمسكوا به.

صرخت:

- أنا المحامى.

ولكنهم ألقوا بى داخل قفص الاتهام متجاهلين ضجيج الحاضرين. غمر المكان ضوء أحمر باهت...

ركزت بصرى على المتهم داخل قفص الإتهام الذى يجمعنا معا في كارثة واحدة...

حدجته بنظراتى السريعة... أذهلتنى المفاجأة.

العينان هما نفس العينين... الشعر... اليد... القدم... الأذن.

كان هو (أنا) !!!

أنا بشحمى ولحمى !!!

انتابنى فزع مروع، صرخت:

- ما الذى جاء بك إلى هنا ؟!

غمر المكان اللون الأحمر الزاهى... أخرج (أنا) سكينا طويـــلا يقطر دما وصوبه تجاه يسراى.

صرخت:

- ماذا تفعل ؟

ولكنه (أنا) تجاهلنى تماما وشرع فى بتر يسراى فـــى وحشـية هائلة ثم ألقى بها فى وجوه القضاة من أصحاب الملامح الباهتة.

تعالت صيحات الجماهير...

اضطربت القاعة...

حاولت أن أمنع نزيف الدماء، ولكنه كان شديد التدفق.. صحــت به ثانية:

- ماذا تفعل؟

ولكنه ما لبث أن هوى بسكينه الحاد على يمناى فأطاح بها.

طفقت الدماء تتدفق بغزارة...

نظرت فى رعب إلى وجوه الحاضرين وكـأننى أسـتجير بهـم ولكننى لم أجد واحداً منهم، وكأنهم فروا جميعاً أو اختفوا.

عندما إستدرت إليه (أنا) كان لازال شارعاً فى تمزيقى قطعـة إثر القطعة. يديه تعبث بأحشائى الداخلية، ينتزع قلبى ثم أمعائى ويستمر إلى الداخل متوغلاً.

لم تكن الدماء تتدفق فقط من جسدى وإنما كان السـقف أيضـاً يسكب دماً غزيراً أحمر قانياً.

حتى الأرض كانت تفيض أو تتفجر بشلالات من الدماء.

وأحسست أننى لا أستطيع التنفس.

كنت كمن يهوى أو يغرق فى فيضان من الدماء... ذلك الفيضان الذى غمر المكان كله.

(١١)
"الدماء الذهبية"

لطمنى سالم لطمة قوية أفقت على أثرها من غيبوبتى.. نطقـــت بصعوبة :

– أين (أنا)؟

على الرغم من جسدى المكدود المتعب ورأسى المثقلـــة بـــدوار مزمن إلا أنه كان باستطاعتى تمييز كل ما يحدث حولى..

– إنك عضو جديد فى هذا العنبر.

تحسست كل أعضائى فى فزع .. لم تكن هناك أربطة أو شـــاش أو ميكروكروم.

ولم أصدق!!!

تطلعت فى دهشة إلى كل من حولى ... كانوا أصحاء الجســـد، أقوياء البنية... كاملى الأعضاء.

– نحن هنا مجموعة أصحاب الدم الذهبى.

– و (أنا) ؟!

– أنت واحد منا.

صرخت فى هيسترية:

- المحكمة ... قفص الإتهام ... الدم ... الأعضاء المقطوعة!!!

- لابد أنك كنت تهذى أو تحلم.

- أقسم أنه لم يكن حلماً.

- أيها الأحمق أنك الأن عضو فى أفضل طبقة.

فى تهكم:

- أصحاب الدم الذهبى.

- يكفى أنهم لن يأخذوا منك أى عضو قط.

- قط.

- فقط فى ميعاد دورى يسحبون منك كمية لا بأس بها من دمك.

سحبت أنفاس عميقة مطمئنة، ولكن سالم همس فى خوف فطرى:

- ولكن!!!

فى استياء:

- ولكن ماذا؟!

- فى بعض الأحوال النادرة يأخذون عضواً أو اثنين.

وتلفت حولى فى ذعر فوجدت البعض فاقداً ليسراه أو يمناه فصرخت فى وجهه فى انقباض:

– لماذا؟

ولكنه لم يجب واستدار بغتة إلى زملاء العنبر قائلا:

– دعنى الآن أقدم لك أفراد أسرتك الجديدة.

نظرت إليه فى دهشة شديدة ثم صحت به:

– سالم.. ماذا بك؟

كان سالم يتحدث بحرية مفرطة وبلهجة يشوبها قوة غريبة لم أعتدها منه قط.

كانت الحجرة واسعة فى شكل متوازى المستطيلات والأسرة حديدية متراصة فى صفوف على الجانبين.

وكان أفراد العنبر يرسلون إلى نظرات الترحاب ويطوقوننى بسوار من العناية والمودة العاجزة، وثمة كهل تبدو عليه مسحة من الوقار والجدية الشديدة ... جسده ممدود فى حزم، بعينيه بريق غريب... ملابسه نظيفة خالية من بقع الدماء القذرة.

أشار سالم إليه قائلاً:

– هذا هو القائد علوان .. قائد المجموعة.

وشد علوان على يدى فى قوة لا تخلو من دفء.

كلهم متجمعون فى منتصف العنبر .. لم يكن هناك مقاعد، فقط بعض الأوراق الممتدة تحت أقدامهم.

كلماتهم غريبة، عجيبة وكأنهم يتحدثون بروح واحدة، على الرغم من التفاوت الكبير فى شخصياتهم، مما أكسب لهجتهم وقع غريب على أذنى.

البعض يلقى بالنوادر أو الفكاهات والبعض غارق فى مزاولة بعض الألعاب الشبيهة بالشطرنج أو الورق أو النرد، كانت مصنوعة من أشياء حسبت فى بدء الأمر أنها عاج خالص، بيد أننى عرفت من سالم فيما بعد أنها مصنوعة تماماً من فضلات العظام البشرية التى تم تغطيتها بمادة تشبه الغراء.

(١٢)

"عابـــــد"

فى الفناء الواسع كان الجميع على الأرض جالسين عدا أصحاب الدماء الذهبية كانوا على الأريكة الطويلة يتسامرون.

صاح طارق بى:

- هيه يا صاحبى.

كان يجلس إلى جوار عاكف الذى لا يرفع عينيه عنـــى وكـــانوا جميعاً يجلسون فوق البلاط الشديد البرودة.

طارق:

- يبدو أنك الأن قد صرفت النظر عن فكـــرة الهــرب واندمجت معنا فى حياتنا.

- **هذه حياتكم أنتم أما حياتى أنا فدعوها لى.**

غريب:

- **الحياة لا تخلو من الآلام.**

سالم:

- **ونحن آلامنا لا تحتمل.**

مسعد:

- ماذا تريد؟

- الحرية.

أمل :

- الحرية التى لا أحد يضمنها أبداً فى أى زمان كان أو مكان.

غريب:

- نحن لا نتطلع إلى أى شىء.

- ألا تحلم؟!

غريب:

- يمكنك أحياناً أن تفقد ذاكرتك بإرادتك كما يمكنـــك أن تعيش أيضاً بلا عقل.

- وأنت من أى نو ع ؟

- أنا بلا روح.

مسعد فى تهكم:

- أنت ميت إذن.

غريب فى جدية:

- بل أنا غير موجود ... أنا مجرد شـــبح ... أو حتـــى بقايا شبح.

صرخت في غضب:

– من المستحيل أن أصبح مثلكم، جماعة من الحمقى بل من المجانين!!!

أنا لن أصبح سالماً آخر أبكى الناس على أنفسهم وعلى نفسى ولن أصبح أيضاً مسعداً جديداً لا هم له غير إضحاك الناس برسوماته وألوانه الحادة الصارخة.

كما أننى لا يمكننى أن أتمسك بواقع أحمق مجنون كطارق ومنطقه العجيب ولن أفعل مثل غريب الغارق فى كلماته وكتابته والذى لا يعنيه سوى أن يصدم الناس بالحقيقة فأنا لست عاكفاً صامتاً لا هم له سوى أن يغرق الناس بموسيقاه فى غيبوبة ضبابية لا معنى لها فيصفقون وهم لا يدرون لماذا هم يصفقون؟!

هل يصفقون للناى أم للعازف؟!

هل يصفقون لأنفسهم أم على أنفسهم؟!

والتفت طارق إلىّ مهدئاً من روعى:

– يا صديقى تمالك بعض نفسك.

وهمس غريب:

– يا عزيزى من المستحيل أن تهرب نملة من هذا المكان.

وقال سالم:

- ألم أقل لك من قبل دعك من فكرة الهروب هذه تماما.

وصاحت أمل فى وقاحة:

- كفاكم حديثا لا طائل ولا جدوى منه، بل هو حديث شـــديد الخطورة.

وقال سالم فى خوفه الفطرى المعتاد:

- فعلاً ولا سيما وأن جواسيسهم يملأون المكان.

والتفت سالم إلى قائلاً:

- صدقنى أنت فى أمان وراحة كبيرة تحسد عليها.

الهروب .... الإحباط... العجز... الخوف ... الاستسلام ... التمرد..
الدم الذهبى ... الأعضاء المسلوبة ... الدم .. الخوف.

همس طارق:

- هيا بنا إلى الشيخ عابد.

- ...؟!

- إنه والدنا جميعاً.

وسرنا قليلاً بمحاذاة الأريكة الخشبية الممتدة بطول الفناء ووقفنا جميعاً أمام حجرة صغيرة، مالبث طارق أن قام بطرقها برفق...

وسمعت صوتاً دافئاً يأتى من الداخل، ثم فتح البـــاب الـــذى أحـــدث صريرا حاداً ... واقتربت منه فى خوف فطرى ثم رفعت رأسى إلى وجهه.

كانت نظراتى سريعة حائرة إلا أنها لم تلبث أن استقرت تجاه وجه نوارنى أخذ تحيطه هالة من البراءة والطهر والوضوح، وأحسست بسكينة عميقة لم تواتنى من قبل.

وملأ جوانحى إحساس ربما هو المزيج من الراحة والأمان ولم أستطع أن أرفع وجهى ثانية.

واندفعت اليه بفيض من الحنان الجارف ،.. وهويت على يديه محاولاً أن ألثمها بيد أنه رفعنى إليه فى قوة لا تناسب قط ما يحمله ظهره من سنوات العمر...

وعانقته لبرهة من الزمن أحسست بعدها أننى قد تخلصت من كل همومى بل ومن كل هموم العالم بأسره...

وخرجت كلماته رزينة حكيمة تحدث صدى عميقاً فى كل النفوس:

– تماسك يا ولدى؟!

وبكيت إزاء هذا الفيض من المشاعر الجارفة التى حسبت أننى فقدتها إلى الأبد.

وتحركت اليد الكريمة تربت على ظهرى فى رفق.

– أنت شاب طيب.

الدموع فى أعين الجميع، حتى غريب أخفض عينه وكأنه يحاول ألا يراه أحد وهو يبكى، بينما كان عاكف يتابعنى بنظرات ثابتة

صلبة.

وصاحت أمل فى قوة:

- كفاكم حزناً لم يعد باق من العمر المتسع للمزيد مـــن الأحزان.

أما أنا فقد كنت غارقاً فى غيبوبة من الصفاء الروحى.

(١٣)

"سالم"

دوت صفارة الخطر فى أرجاء المكان، انبعثت فى صفير متقطع لا يتوقف، اضطربت الجموع، طفرت إلى الوجوه علامات الفزع الممزوجة بالرعب الشديد، تعالت صيحات الخوف تزلزل المكان، واندفعت أعداد هائلة من البشر تهرول هاربة، صحت بأحد الفارين:

- ماذا هنالك؟

ولكنه لم يعيرنى أدنى إهتمام، جذبت آخر بعنف:

- ماذا حدث؟

ولكنه اكتفى فقط بقوله فى اضطراب وهو يهرول إلى عنبره: كارثة ... كارثة مروعة!!

وارتسمت على وجه طارق علامات الدهشة الشديدة، وصاحت أمل فى اضطراب:

- إدفعونى صوب عنبرى.

وقال مسعد فى وجل:

- لننجوا بأنفسنا.

ولبث عاكف يراقبنى دون أن يختلج فى وجهه عصب، أوحتـــى تتحرك شفه وكأنه لوح بارد من الجليد.
اعترانا جميعاً خوف شديد إلا أن خصلة الفضول التى اعتـــادت دوماً أن تتملكنى جعلتنى أستدير إلى رفاقى صائحا:

- هيا بنا لنتحرى الأمر.

ولكننى لم أجد سوى طارق الذى لبث فى مكانه يشاهد الجمـــوع وهى تمضى فى اضطراب.
كانت خطواتهم قلقة مرتعدة، وصيحاتهم هادرة رهيبة...
جذبت طارق فى عنف قائلا:

- تعال معى.

وانطلقنا فى طريقنا نصطدم بالبشر، كانوا جميعاً يهرولون إلـــى عنابرهم بينما كنا نمضى فى الإتجاه العكسى مخترقين الصفوف، وكنت أتشبث بطارق، أتعلق به، أحتمى به من حمـــى الفضـــول التى أعترنى أنذاك وجعلت تدفعنى إلى مصير مظلم !! مجهول!!
وعندما اقتربنا من مكان الحادث لمحت أحد الأشـــخاص، وقـــد وقف وقفة ملؤها الصلابة والتحدى، بينمـــا تعـــالت الأصـــوات المرتعدة من حوله، تشير إليه:

- هذا هو القاتل!!

واصطدمت نظرات عينى بجثة ضخمـــة ملقـــاة علـــى الأرض، تتدفق الدماء منها بغزارة..

كان الفناء قد فرغ تماماً من البشر عدا ثلاثتنا، أنا وطارق وذلك القاتل الصلب وهذه الجثة المضرجة فى دمائها.

وران على الجميع صمت عميق وغرق المكان كله فى لجة مـــن سكون وظللت للحظات طوال فى رهبتى قائماً بينما بصرى زائغ من الهلع.

أخيراً استطعت أن أنبس:

- ماذا حدث ؟

إلا أن القاتل لم يعيرنى أدنى إهتمام، وجعلت أتفرس فى ملامـــح الجثة الملقاة على الأرض، وأصابتنى المفاجأة، كانت لواحد مـــن أصحاب الملامح الباهتة !!!

والتفت إلى طارق الذى ما زال واقفا يرقب الموقف...

كان ينظر إلى القاتل فى حيرة مفرطة، قلت له فى جزع:

- فلنغادر المكان بسرعة.

ولكنه لبث يصوب نظراته إلى القاتل، كان يحدق فيه فى دهشـــة بالغة، دون أن يعيرنى أدنى اهتمام.

صرخت فى وجهه:

- هيا بنا، لنفر من هنا بسرعة.

ولكنه لم يتحرك، صحت به:

- أيها الأحمق ألا ترى خطورة الموقف ؟

إلا أنه تمتم قائلاً:

- سالم !!

صرخت في وجهه:

- أيها الفاقد لصوابك إنها جثة واحد من ذوات الملامح الباهتة.

قبل أن أطلق ساقي للريح، اصطدمت نظرات عيني بوجه ذلـــك القاتل الصلب، وصعقتني المفاجأة، شلتني تماماً عن التفكير، ولم أنبس للحظات خلتها دهراً وبصعوبة مفرطـــة تحـــرك لســـاني، همست في دهشة:

- سالم !!!

اقتربت منه أكثر حتى صرت على قيد خطوة واحدة منه، صحت في تعجب شديد:

- سالم... مستحيل أن تكون أنت القاتل.

واستدار طارق إليه قائلاً:

- كيف... كيف فعلتها ؟!

إلا أننى صحت بهما:

- لننجو بأنفسنا.

ولكن سالم لم يتحرك من مكانه، صرخت فى وجهه، حاولت أن أجذبه من يده، ولكن كانت به قوة وصلابة لم أعهدها فيه من قبل قط!!!

جذبت طارق بعنف وهممت أن أندفع صـــوب العنـــبر، بيـــد أن جماعات غفيرة من ذوى الملامح الباهتة جعلت تتدفق إلينا فـــى غزارة، محاصرة إيانا فى دائرة شرعت تضيق رويداً.

(١٤)

"عنبر الموت"

صيحات الخوف...

والإضاءة الباهتة...

والرائحة الكريهة وثمة أجهزة وأدوات دقيقة ملطخـــة بالدمـــاء تحيط بنا من كل جانب.

إلتفتُ إلى سالم صحت به:

- أين نحن ؟

ولكنه لم ينبس، وصاح طارق بى:

- نحن فى عنبر الموت.

وتعالت صيحات الخوف وساد المكان ضجـــة شـــديدة... ودوت صفعة قوية على وجه سالم الذى لم ينبس بينما وجهت لكمة قوية إلى طارق.

وكان من نصيبى أنا ركلة شديدة فى معدتى، وتوالت الركـــلات والصفعات من كل جانب حتى تدفق الدم منا بغزارة.

وهكذا بدأت سلسلة التعذيب المروعة...

أمسكوا بى فى عنف وأنا لا أكاد أقوى على النهوض ثم ربطونى

بحبل غليظ لأجد نفسى فى النهاية مصلوباً فى وضع عجيب.

كان إحساسى بالخوف القاتل يمنع عنى أى إحساس بالألم وكنت رغم كل ما أصابنى أنتظر!!!

أنتظر كارثة ما .. كنا مصلوبين وكان المشهد رهيبـــا، كأننـــا صرنا جميعاً السيد المسيح أو حتى يهوذا الإسخريوطى.

اقترب واحد من ذوى الملامح الباهتة حتى بات على قيد خطـــوة واحدة منى.

كانت صورته المقلوبة تثير فى داخلى أحاسيس شـــتى، فجعلـــت أضحك غارقاً فى هيستريا الرعب الشديد، واضطربـــت بشـــدة حينما أخرج سيجارته المشتعلة من فمه موجهاً إياها إلى عينـــى، صرخت:

- لا أرجوك.. أتوسل إليك.

كانت السيجارة تتجه فى إصرار صوب عينى.

وصاح طارق به:

- دعوه فلا شأن له بما حدث.

بيد أن صاحب الملامح الباهتة استدار إليه بسرعة وركلـــه فـــى رأسه بعنف حتى أضحت الدماء الغزيرة تغطى وجهه تماماً.

وطفقت النيران تأكل جسدى إلا أننى لم أستطع أن أصرخ، كانت أعقاب السجائر تطفىء فى لحمى فى وحشية بالغة، وتبول أحدهم

فى إناء صغير واقترب به من طارق محاولاً إرغامه على تجرع ما به، وأصابنى غثيان شديد وأنا ألمح قطرات البول الممزوجة بالدماء وهى تتساقط على وجهه.

ودوت صفارة الغذاء فى أرجاء المكان فتوقفت جماعات الملامح الباهتة عن مزاولة وحشيتها معنا، واتجهت فى صفوف صوب الخارج.

التفت طارق إلى سالم قائلاً له فى حدة:

- كيف فعلت ذلك؟

ولكنه صاح فيه بقوة غريبة قائلاً:

- إصمت.

أحسست بالدم يهبط حاراً إلى رأسى، صحت به:

- يا لك من إنسان غريب.

وتناهى إلى سمعى صوت نسائى مألوف:

- أنت لم تر شيئاً بعد؟

والتفت برأسى إليها وكانت مفاجأة، كانت فاتنتى الغريبة، سألتها فى دهشة:

- كيف أتيت إلى هنا؟

ولكنها لم تجب، صرخت بها:

- أرجوك ... كفاك عبثاً بى ودعينى لشأنى.

بيد أنها قالت فى جدية شديدة:

- علوان... القائد علوان إذهب إليه.

صرخت فى وجهها:

- ألا ترين أن طلباتك غير مناسبة بعض الشئ، أحياناً تبدين حمقاء أو حتى بلهاء ولكنك على كل حال جميلة جداً.

وصاحت الفتاة فى غضب:

- كفاك تهريجاً.

- من منا الذى يهرج؟! ألا ترين أننى سألقى حتفى بعد دقائق معدودات؟

إلا أنها ولت من أمامى مهرولة وهى تردد: القائد علوان... القائد علوان!!!

الجزع، الخوف، الرعب، الهلع!!!!

كلها أشياء أنصهرت فى إناء واحد لتصب فى بوتقة واحدة، لأتجرعها أنا فى بطء شديد، بطء يكاد يفتك بى.

وأحسست بسائل لزج يشبه العسل الأسود وهو ينسكب فوق جسدى فتملكنى إمتعاض شديد، ودوى صوت أجش أت من مسافة بعيدة، يبدو وكأنه صوت مستعار:

- من القاتل؟.. لماذا قتلتموه؟ .. من زعيمكم؟ .. ما هى الخطة الخبيثة التى تعتزمون تنفيذها؟

ولبث سالم على حاله ساكناً وكأنه مريض وصاح طارق:

- أنا لم أفعل أى شىء.

وتعالت الصرخات تملاء المكان بينما اندفعت شرذمة ضخمة من الكلاب المسعورة تنهش فى لحومنا فى شراسة رهيبة وكنت أنـــا أدفع بيدى عن وجهى الذى حتماً قد فقد كل معالمـــه، ولمحـــت بعينى قطع الفحم الصغيرة وهى تنسكب من جوال ضخم بينمـــا تمتد الأيدى الأثمة لتشعلها، وجذبوا واحداً منا بعنـــف وجعلـــوا يسحبونه على الأرض، يجرونه فى وحشية بالغة بينما تســـحقه أقدماهم اللعينة، كان يتملص من بين أيديهم، يصرخ صرخـــات مكتومة، مرعبة تهوى إلى أعماقى، بيـــد أنهـــم لـــم يرحمـــوه، وشرعوا فى نزع ملابسه قطعة بعد قطعة وصاح شـــخص فـــى رعب: ماذا ستفعلون به؟

وهمس أخر فى بساطة غريبة: مثلما يفعلون بنا جميعاً.

واضطرمت النيران، وامتدت ألسنة اللهب، وتوقفوا عـــن إلقـــاء قطع الفحم، وأمسكوا بكلابهم الجائعة، وساد المكان سكون قـــاتل إلا من صرخات المسكين الذى جعل يتلوى بيـــن أيديهـــم فـــى رعب، يستعطفهم تارة، ويستنجد بنا تارة أخرى، وهم يقربونـــه

من قطع الفحم المشتعلة.

وتعالت صرخاته تشرخ المكان حين أسقطوه على ظهره فـــوق قطع الفحم الملتهبة وانبعثت الأبخرة والدخـــان ورائحـــة اللحـــم المحترق، ودوت صرخة رهيبة أعقبها استكانة مفاجئـــة عندمـــا أطلقوا الكلاب المسعورة تنهش لحم ظهـــره المشـــوى، ولتنعـــم بوجبة طالما استمتعنا بها.

وتقدموا نحونا ينشدون الضحية التاليـــة، ووقـــف واحـــد منهـــم أمامي... أحسست دواراً شديداً، تعالت دقات قلبى، تملكنى خوف قاتل، أشار أحدهم إلى عضلات ذراعى المفتولة، وكأنه يوجـــه انتباه زملائه اليها، صرخت: لا لن تأخذوها.

ولكنهم شرعوا فى فك الأربطة من حولى، صحـــت بهـــم فـــى هستيرية: لا شأن لكم بى بيد أن أحدهم أشار إلى أن أتجه صوب أحد براميل الزيت الضخمة، كان يشير إلى دون أن ينبس بكلمة واحدة وكأنه لا يستطيع الحديث أو كأنهم جميعا يـــترفعون عـــن مجرد إلقاء بضعة كلمات إلينا.

وحملت البرميل الضخم ثم وضعته فوق قطـــع الفحـــم المتقـــدة، وبينما كنت أفعل ذلك اصطدمت نظرات عينى بعينـــى أحدهـــم فأحسست برجفة شديدة...

كانت عيناه غريبتين، غامضتين، مخيفتين، باهتتين!!!
وتعالت الأبخرة الضبابية من برميل الزيت بينما كنت أنا واقفـــا في رضوخ أنتظر أوامرهم لي، بيد أنهـــم إتجهــوا نحــو أحــد المصلوبين وأمروني بفك وثاقه ثم تجريده من ملابسه، ورضخت لتنفيذ الأمر وأنا أبكي.. كان المسكين يصوب إلى نظـــرات لـــم أواجهها طيلة حياتي وهو يصيح في وجهي: خائن .. خائن.
وتعالت الصرخات القاتلة بينما كانت رائحة اللحم المقلـــي تمـــلأ أنوفنا.
وأخيراً ألقوا بالمسكين إلى الكلاب المرتقبة لفريستها الآدمية ثـــم أشاروا إلى أن أحل وثاق من يليه، ونظرت إلى الضحية التاليـــة وأنا أرتعد، بيد أنني صرخت في فزع : مستحيل.
كانوا يريدوني أن أهم بفك وثاق طارق.
وهمس طارق:
- أيها الأحمق بك أو بغيرك سينفذون الأمـــر هيـــا وإلا قتلوك.
وأحسست بمرارة شديدة في حلقي ولكنني جعلت أردد: مستحيل .. مستحيل.
تقدموا نحوي.. أمسكوا بي في عنف.. أخرج كبـــيرهم منشـــاراً كهربائياً ضخماً.. وطفقت سكينة المنشار تهتز في يديه، تدور في

سرعة رهيبة أمام عينى، وقبل أن يطيح برقبتى صرخت:

- سأنفذ .. سأنفذ الأمر.

ودوت ضحكاتهم كئيبة هيستيرية بينما كنت أنا أصيح بسالم:

- أترى عاقبة ما فعلت؟!

وارتعد طارق بين يدى وأنا أفك وثاقه ثـم أخـذ يتوسـل إلـى متراجعاً:

- أرجوك ... أرجوك دعنى.

وصاح أحد المصلوبين:

- لا .. لا تنفذ أوامرهم.

وأحسست بقلبى يقطر دماً، وحانت منى إلتفاتـه إلـى الخلـف فاصطدمت نظرات عينى بوميض المنشار وبريق سكينه الحـاد الذى ظل يدور وطفقت أوثق القدمين المرتعشتين الصغيرتين وأنا أبكى...

كان يركلنى فى وجهى .. فى جسدى.. وأنا أوثقه وأبكى..

وصاح سالم بغتة وكأنه قد أسترد وعيه:

- دعوهما أنا القاتل، وهذان لا شأن لهما بما حـدث... نعم أنا أعترف بأننى القاتل وهؤلاء جميعاً لا شأن لهـم بما حدث ،فقط كانوا متواجدين فى موقع الحادث عندما هممتم بالقبض علينا.

وصرخت فى قوة: أنا برىء ... أنا برىء.

التفت إلى طارق كان ملقى على الأرض، سقطت إلى جـــواره، وهمست فى أذنه:

- إنهض ... لقد نجونا.

بيد أننى لم أجد وجهه تماماً، كان قطعة من اللحم المقلى!!!

وصرخت ... وصرخت ... وصرخت حتـــى ضـــاع صوتـــى المبحوح تماماً.

(١٥)

"العـــودة"

جسد ممزق، وجه مشوه، للبكاء لا، للألم لا، للصمــت مرحبــا، فقط مرحبا.

فى فناء الحديقة لا أقوى على رفع يدى، شبح طارق يواجهنــى، غريب ومسعد، وأمل وعاكف جميعاً حولى، ووجه طارق المشوه يطاردنى.

أحاول أن أفر، أن أهرب، يأتينى صدى سؤال حائر: إلى أين؟

قلبى يقطر حزناً... يقطر خوفاً.. يقطر مرارة وعجزاً .. الحزن يؤلم، الخوف يحطم.

للخوف لا .. للرعب لا .. للحزن لا.

قال مسعد:

- تكلم.. قل أى شىء.

صاحت أمل:

- ماذا حدث؟

صرخ غريب فى غضب:

- لا تستسلم لهوة الصمت، إنطق يا فتى ماذا حل بك؟

مسعد:

- أين طارق؟ ألم يطلقوا سراحه معك؟

تحركى يا جبال الألم فى أعماقى، تحركى هادرة، ضيعــــى يـــا طرق، تشعبى يا سبل، تنوعى، تعددى، تزايدى.

فالنهاية واحدة... حتماً واحدة.

تحركى يا دائرة ولتجعلى حلقاتك المفرغة تدور بنا، ثقى تمامــــا أننا لن نسألك متى ستتوقفين فنحن حتى لا نعرف متى بدأنا؟

إلتفوا جميعاً حولى .. حاولوا إرغامى على الحديث .. صـــاحوا بى:

- تكلم .... تحدث ... ماذا ألم بك؟

ولمحت عابد وهو يقترب منى، كانت هالة النور تحيط وجهـــه، ووضع يديه الكريمةَ فوق رأسى ونظر إلى فى عطفٍ قائلاً:

- ماذا حل بك يا ولدى؟

غريب:

- إنه لا يتكلم.

مسعد:

- لقد أصيب بالخرس.

أمل:

- يبدو أنهم نزعوا منه لسانه.

وجذبني عابد اليه بشدة قائلا:

- انهض.. انهض يا فتى.

انسابت دموعى غزيرة.

كان يكرر:

- أنت شاب قوى.

ألقيت بنفسى بين ذراعيه، جعلت أبكى .. أبكى فى مرارة شديدة.

وهمس عابد فى أذنى:

- بالحب يمكنك حل أى مشكلة ....حب الناس .. حب العالم كله.

ونظر عابد الى فى قوة ثم استطرد قائلا بصوت مرتفع:

- لم تواجهنى فى حياتى يوما مشكلة إلا وعالجتها بالحب ، ولم أصطدم يوما بكره لأحد إلا واجهته بمنتهى الحب.

حاورت الكثيرين ولم نتفق على شىء اختلفنا وتنازعنا بل وعادينا بعضنا البعض ولكننى أبدا لم أكره واحدا منهم، كل ما كان بداخلى هو الحب.. الحب لكل ما هو موجود حولى، فالحب هو الحقيقة الوحيدة المدهلة الموجودة فى هذا العالم.

فهل من المستحيل أن تحب ... أن تحب حتى أعدائك؟!

صرخت:

- أنا قاتل!!!

ونظر عابد الى فى دهشة قائلاً:

- أنت لاتقتل أبدا.

صرخت فى هيستيرية:

- بيدى تلك قتلت طارق.

شهقت أمل:

- مستحيل.

وتساءل مسعد:

- كيف؟

وهمس غريب فى مرارة:

- وداعا يا صغيرى.

لتمضى يا حياة ... فبالصمت يمكنك أن تمضى، وبالضجيج يمكنك أيضا أن تمضى.

بالحزن، بالألم، بالمرح لابد أن تمضى.

ولتدورى يا دائرة فالأمر لم يعد يعنينا ، لم يعد يخصنا...

وأصابتنى حمى شديدة جعلتنى أنتفض بين يدى عابد بيد أنه أمسك بى فى رفق وجعل يربت على ظهرى.

عاد بى الى عنبرى ، ودثرنى بغطاء كثيف لاأدرى من أين أتى به، وهمس لى بعد ما أرقدنى فى سريرى:

- يجب أن تنام.

(١٦)

"علـــوان"

- أود أن أكون عضواً معكم.

كان قد ترامى إلى سمعى فى الأونة الأخيرة بعض الأقاويل عن تنظيم سرى للهرب إلا أننى لم أستطع الوصول إلى حقيقة مؤكدة أو حتى دليل واحد على وجوده، فأسلمت الأمر برمته على أنـــه مجرد شائعة لا أساس لها من الصحة، ولكن كلام فاتنتى لى فى غرفة التعذيب جعلنى ألقى لعلوان بهذه الكلمات المباغتة.

وهمس علوان بجديته المعهودة:

- نحن جميعا أعضاء فى عنبر واحد.

قلت فى ضيق:

- أود أن أهرب.

التفت إلى علوان فى دهشة وكأنه فوجىء بصراحتى ثم قال:

- ألا تخشى غرفة التعذيب؟

أحسست برجفة قوية .. احتوتنى صورة طارق بوجهه المشـــوه تماماً، صرخت فى وجهه:

- أنا لا أخشى شيئاً.

انزعج علوان، قال فى حدة:

- إخفض من صوتك أيها السفيه.

وجعل يتفرس قليلاً فى وجهى، ثم قال:

- وما شأنى أنا بهروبك، فلتهرب، أنا لن أمنعك.

أحسست بالدم يصعد حاراً إلى رأسى، صحت فى جرأة غريبة:

- سألقنك درساً قاسياً إذا ظللت تحـاورنى بمثـل هـذه الطريقة الملتوية.

ولكنه نظر إلىّ شزراً وقال:

- كيف تجروء على محادثتى بمثل هذا الإسلوب غـير المهذب أنسيت أننى القائد .

- إذن أيها القائد فلتكف عن المراوغة.

ولكنه استدار تاركاً إياى وهم بالإنصراف.

صحت به مهدداً:

- يمكننى الآن أن أدلى لذوى الملامح الباهتة بكـل مـا أعرف.

لبث علوان فى مكانه متجمداً، استطردت:

- التنظيم السرى ... خطة الهروب.

بالرغم من كونى أهذى إلا أن علوان بكل جديته وصراحته لـم يجد مناصاً من أن يصيح:

- أصمت .. تعال معى.

كانت خطواته واسعة وكنت أنا أسير إلى جواره وكأننى أجرى، كان يجذبنى بعنف صوب مكان مجهول، سألته: إلى أين؟

ولكنه لم ينبس!

خرجنا من العنبر إلى الفناء الواسع، وبخطوات سـريعة جعلنـا نخترق الجموع، أشار إلىّ مسعد ملوحاً ولكننى لم أعيره أدنـى إهتمام.

ترامى إلى أذنى صياح غريب: نحن نفتقدك.

وأحسست بانقباض شديد حينما خلت طارق يجلس بينهما يصيح بى:قاتل.. قاتل.

وجعلت أوسع من خطواتى هارباً إلا أن أمل صاحت بهما فـى وقاحة: لا تهتما بصاحب الدم الذهبى، يبدو أن الغرور قد أصابه.

وأخيراً وصلنا إلى آخر الفناء....

ثمة مجموعة من الأفراد تجلس على أريكة ضخمة، انتحى القائد علوان بأحدهم جانباً، كان يشير إلىّ بين الفينة والفينة، وكـانت العيون تتفحصنى بعناية ودقة شديدة، هممت أن أصيح بعلـوان مستعجلاً إياه، بيد أننى أحسست بغتة بشىء ثقيل يهوى علـى أم رأسى.

(١٧)

"الخنجر القاتل"

ملامحى ثابتة... مدلى من سقف الحجرة، معلــق فــى خطــاف حديدى ضخم، إلتفوا جميعاً حولى فى دائـــرة واســعة، كــانت الإضاءة شديدة، أضاعت معظم ملامحهم، أتانى صوت غليظ:

– ماذا تريد منا؟

– من أنتم؟

دوت صفعة قوية على وجهى، اختلطت الرؤى... تداخلت.

– أأنتم أصحاب الملامح الباهتة؟

تداخلت الأشياء، كل الأشياء ولأول مرة لم أستطع التمــيز بيــن ملامح البشر.

جاءتنى ركلة قوية فى معدتى، سمعت أحدهم يصيح:

– أيها الخائن لماذا تتعاون مع أعدائنا؟

لمحت القائد علوان يقترب، صحت أستجير به من الألم ولكنــــه التفت إلىّ قائلاً فى حزم:

– من أخبرك بأمرنا؟

– إنها فتاة لا أعرف اسمها.

وأحسست بلكمة قوية فى أنفى:

- لماذا لا تصدقوننى؟

قال علوان فى سخرية:

- كنت تود أن تدلى بمعلومات عنـــا لـذوى الملامـــح الباهتة.

صرخت:

- كنت أهذى، صدقنى كنت أهذى.

دوت ضحكات الجميع، حتى أننى صحت بهم:

- بعدما قتل سالم واحداً من ذوى الملامح الباهتة...

وقبـــل أن أكمـــل كلمـــاتى تعـــالت ضحكـــات الجميـــع المشوبةبالسخرية،حتى أن علوان صاح:

- سالم يقتل... هذا مستحيل ... إرحم نفسكَ يا عزيزى واعترف لنا بالحقيقة، نحن لا نريد منك سوى أن نعرف أسماء الخونة.

قلت فى ذعر:

- تقصد أولئك الذين يتعاملون مع أصحـــاب الملامـــح الباهتة؟

- تماماً... وصدقنى سأضمن لك عقاباً أقل، هيا اعترف.

- اعترف بماذا؟

وصاح علوان فى ضيق:

- لا جدوى منه، ضاعفوا له التعذيب.

واقترب أحدهم منى، كان ممسكا بقطعتين صغيرتين من الحديد مدلى منهما سلك طويل أخطبوطى، ممتد حتى فيشة الحائط، ووضعهما حول رأسى بإحكام شديد، ثم ضغط الزر الكهربائى فجعلت أعوى من الألم.

صرخت:

- أنكم لم تسمعوا قصتى حتى النهاية.

صاح أحدهم:

- اصمت أيها الكاذب ... ارفعوا شدة التيار حتى يعترف.

بيد أن علوان تدخل قائلاً:

- دعوه يكمل روايته الملفقة.

وانطلق لسانى يسرد لهم كل ما حدث بداية من قتل سالم لواحد من ذوى الملامح الباهتة، وحتى الإفراج عنى، رويت ذلك كله بمنتهى الصدق إلا أن واحداً منهم صاح بى:

- لنفترض أن سالم قتل واحداً من أصحاب الملامح الباهتة، ولنفترض أنك قابلت تلك الفتاة الغريبة هناك،

ولنفترض أنها أفضت إليك بأسرارنا، ولكن ، نفترض أنهم سمحوا لك بالخروج من غرفة التعذيب.

-هذا ما حدث!!

- لماذا إذن يقتلون طارق ويتركونك أنت؟

ولم أنبس ولكن علوان أردف:

- هذا لأنك خائن.

صرخت:

- أقسم أننى أفضيت إليكم بالحقيقة.

أمسكت بيد علوان، همست:

- أرجوك لا داعى للكهرباء .. أتوسل إليك؟

سحب علوان يده من بين أصابعى وقال :

- فعلاً لا داعى للكهرباء.

وابتسم ابتسامة واسعة ثم أردف فى رفق:

- معذرة يا صديقى لابد من قتلك.

واقترب علوان منى شاهراً فى وجهى خنجــراً ذا نصــل حــاد يضوى بلمعة الإضاءة الباهرة.

صرخت فى وجهه:

- أنا لست بخائن.

ولكنه وجه الخنجر صوب سويداء القلب تمامـــا، صحــت فـــى رعب:

– أنا برىء.

إلا أن الخنجر كان قد بدأ فى اختراق صدرى، وأحسست بحرقة شديدة، وشعرت بالدماء الغزيرة تبلل صدرى، وتناهى إلى سمعى صوت يصيح بهم: دعوه يا حمقى.

إلا أننى كنت قد فقدت وسيلة الإتصال بهم تماماً.

"طـــــارق"

ظلام، ضباب كثيف، أبخرة ساخنة، إحساس بالذوبان، بالتلاشى، قيود حديدية، قضبان، موسيقا خافتة، حزينة، عميقة.

-أين (أنا) ؟

سؤال حائر .. سؤال بلا إجابة ... سؤال أضحى دائماً يطاردنى.

أنادى، أصيح، أصرخ.

- أين (أنا)؟

حتى صوتى لا يرتد إلى، يضيع منى، يتلاشى فى عالم الصمت المطبق.

أعود، أرجع ثانية، لا أجد أمامى مـــن الســبل غـــير مواصلـــة الدوران، غير المضى فى طرقات طويلة، حلزونية...

عارى الجسد تماماً كما ولدتنى أمى، داخل عالم غريـــب، بيـــن إناس فقدوا الإحساس حتى بطعم الحياة، أو لعلهم أدركوها أشـــد الإدراك.

- أين (أنا)؟

أشخاص سائرون فى رضوخ تام صوب لا شىء سوى معـــاودة

السير والتجول.

صبى حكيم.. شاب ساخر.. عجوز جبان.. رجل صامت، وآخر ضاحك دائما.

أيادٍ، أقدام، أجساد،دماء!!!

- أين (أنا)؟

أهذا كابوس مزعج؟

استجمعت كل قواى العقلية، تبينت أنه ليس كابوساً.

- أهذا لحد؟! لحدى؟!

تحسست جسدى العارى تماماً صرخت:

- ميت أنا إذن!!!

ارتجفت من هول الفكرة.

لمحت شبحاً لشخص مجهول، كانت الإضاءة الخافتة تحيط جسده العارى، عدوت إليه، دنوت منه، صحت به:

- أين أنا؟

- ....

- هل أنا ميت؟

وشعرت بالرهبة الشديدة حين ظل على حاله ســـاكنا، تمـــالكت نفسى همست:

- من أنت؟

وأخيراً أتانى صوته قوياً، عميقاً رناناً:

- أنا الابن الحقيقى لهذا الواقع.

- كلنا أبناء لهذا الواقع.

والتفت إلى صاحب الصوت فجأة ثم قال:

- لماذا ... لماذا قتلتنى؟

صحت فى فزع من هول المفاجأة:

- طارق!!!

وأصابنى هلع شديد حين تلاشت صورته........

عندما رفعت وجهى ثانية لمحت شرزمة من البشر عارية الأجساد تماماً، تتدفق كشعاع خافت من الضوء ... كانت تحاصرنى.

تساءلت وأياديهم اللعينة تقترب منى: هل أنا إحدى الشخصيات الخيالية فى قصة سريالية؟

ولم تأتنى أية إجابة!

الظلام يحاصرنى، الضباب يخنقنى، الأبخرة الساخنة تلفح جسدى العارى، الأشخاص اللعينة تشكل طوقاً سميكاً من الغموض يلتف حول عنقى، يكاد يخنقنى، أصرخ، أصيح ولا جدوى....

أتملص من بين أياديهم، أعدو، يجرون جميعا خلفى.

التفت إليهم فى ذعر، حدقت فى وجه أحدهم، وتملكتنى الدهشة، التفت إلى غيره، وفزعت!!!

التفت إلى آخر وآخر وآخر...

كان لهم جميعاً وجه واحد هو وجه طارق!!!

وجعلت أعدو فى رعب... أجرى ... أحاول أن أفر.....

ولكن إلى أين؟

أصطدم بالجدار السميك، تنزف الدماء منى بغزارة.. دماء ساخنة، حقيقية.

خطواتهم تقترب منى، أعاود المحاولة مرة أخرى، أغرق فى دمائى.

تمتد الأيدى، تتسلل إلى عنقى، أصيح فى رعب:

– من أنتم؟

يلتفون جميعاً حولى، تقبض الأيدىعلى عنقى بشدة، يصرخون معاً كالبركان الثائر:

– نحن أبناء هذا الواقع.

أختنق.

(١٩)

"عاكـــــف"

تحسست الأربطة والشاش الملفوف بإحكام حــــول صـــدرى...

لازال قلبى ينبض... لا زالت أنفاسى تتردد داخل صدرى.

أحسست بانقباض شديد حينما أتانى صوت القائد علوان:

- حمداً لله على سلامتك.

واصطدمت نظرات عينى بوجهه الجاد العابث .. سألته:

- من أتى بى إلى هنا؟

وبجديته المعهودة قال:

- أنا الذى أتيت بك إلى هنا .. نحن فى نفق سرى تحت الأرض.

- لماذا هممت بقتلى ثم عدت ثانية فأنقذتنى؟ أعادت إليك مروءتك أيها القائد الشهم فى آخر لحظة؟

- أنت لا تدرك خطورة الموقف، ثم أن حكايــــة ســـالم والفتاة المجهولة الهوية تلك لا يمكن تصديقها أبدا.

- أنا لست بخائن.

- كنت أشعر أنك برىء من تلك التهمة.

- إذن لماذا هممت بقتلى؟

- أحياناً لا يكفى الإحساس كدليل للبراءة.

- ولكنه يكفى فقط كدليل إدانه؟!

- لا تظلمنى يا صديقى فأنا إنسان لا يعرف سوى النظام، حياتى كلها قائمة على مجموعة من التعليمات والخطط والبرامج التى أنفذها بغرض الوصول المنظم إلى بعض الأهداف الموضوعة.

فأنا أنفذ الأوامر بدقة شديدة لأن هذا فى نظرى هو الحق، هو عين الصواب.

يوماً ما كنت مسئولاً كبيراً وكان لى زوجة صغيرة جميلة إلا أنها لم تحتمل العيش معى فتركتنى وهربت مع أحد مرؤوسى الصغار، كانت كثيراً ما تصيح فى وجهى: أنت لست بإنسان ولكنك مجرد آله صماء وكنت أصمت....

فأنا لاأؤمن سوى بالهدف وإتباع كل الوسائل والإجراءات وتطبيقها بحرفية شديدة للوصول إلى ما هو صواب.

ثم إن ما حدث معك كان بغرض حماية المئات من أرواح الآخرين، وقتل واحد رغم الشك فى براءته خير من تعريض المئات للهلاك.

- إذن ما الذى جعلكم تعدلون عن قراركم؟

- السيد الرئيس.

- رئيس ماذا؟

- رئيس هذا التنظيم السرى الذى نعمل جميعـــا تحـــت إمرته، هذه الحجرة هى حجرته الخاصة.

قلت فى تعجب:

- أيصل الأمر إلى رئيـــس ســـرى وحجـــرات تحـــت الأرض؟!

- بل وعشرات من الحراس السريين.

- كل هذا !!!

- والعديد من الأسلحة.

فى دهشة:

- أسلحة وأعضاء وحراس ورئيس ســـرى، وحجـــرات تحت الأرض، كيف لكم كل هذا؟

- على رسلك يا عزيزى، حتماً ستعرف كل شىء فيمـــا بعد.

- وما الذى دفع برئيسكم إلى العفو عنى؟

- سيادته كان واثقاً من براءتك.

- وهل يعرفنى؟!

- إن رئيسنا يعرف كل شيء.

وفتح الباب ودلف إلى الداخل شخص ما، مألوف الملامح، وهب علوان واقفاً فى إجلال واحترام، وما عتم يقـــترب منـــى حتـــى صحت به فى دهشة:

- عاكف!! ماذا أتى بك إلى هنا؟

والتفت إلى علوان قائلاً فى بلاهة:

- من غير المعقول أن يكون عاكف عضوا فـــى هـــذا التنظيم إنه حتى لا ينبس.

بيد أن علوان كان مشغولا بتقديم كرسيه الحديدى إلـــى عـــاكف وهو ينحنى فى أدب مفرط، قائلاً:

- تفضل بالجلوس سيدى الرئيس.

صحت فى دهشة:

- رئيس .. رئيس ماذا؟ ... عاكف .. مستحيل!!!

والتفت عاكف إلى وقال لأول مرة فى صوت رزين حكيم:

- مرحباً بك عضواً فى هذا التنظيم.

صحت:

- عاكف!! أنا لا أصدق.

علوان فى دهشة:

- أيها الأحمق قل سيدى الرئيس.

عاكف:

- لا عليك يا علوان إنه صديقى.

ثم التفت إلى عاكف قائلاً:

- لا تؤاخذه يا عزيزى فهو جاد حازم فى شتى الأمور .

- ....

- لماذا لا تتكلم؟

- ....

- مفاجأة!!!

وهمست بصعوبة وأنا أزدرد ريقى:

- أكبر من مفاجأة.

- لماذا؟!

- عاكف عازف الناى، الصامت المنطوى!!!

علوان:

- إن سيدى الرئيس لا يحب الكلام، إنه يحب العمل ... نعم العمل فى صمت، فكم من الدجالين والمشعوذين الذين يتلاعبون بكلمات جوفاء لا معنى لها.

وقال عاكف:

- الكلام هو صنعة الضعفاء.

ثم أردف:

- جرحك لم يلتئم بعد، فلا تجهد نفسك بالحديث، وثــــق تماماً أنك فى أيد أمينة، فنحن فى نفـــق ســرى تحــت الأرض محاطون بالعديد من الحراس الأقوياء المسلحين.

سألته:

- كيف؟!

وأجاب عاكف:

- لا داعى للدهشة إن كل ما تراه ليس حصيلة يـــوم أو يومين وإنما حصيلة سنين طويلة من الكفاح.

فى دهشة:

- وكيف أصبحت أنت رئيساً لهذا التنظيم؟

وقبل أن يهم عاكف بالحديث فتح الباب على مصراعيه واندفعت مجموعات من أصحاب الملامح الباهتـــة يتقدمهـــم الأصلـــع ذو الكرش المنتفخ.. صرخت من هول المفاجأة!!!

وأحسست بالجرح يفتح فاهه وبالدم يتفجر منه.... وفقدت وعيى تماماً.

(٢٠)

"الجميلة"

صحت بعلوان:

- ماذا حدث؟

- لا شيء.

- ولكن أصحاب الملامح الباهتة!!

- إنهم ليسوا بأصحاب للملامح الباهتة إنهم أعوان لنا.

- والأصلع ذو الكرش المنتفخ؟

- إنه نائب الرئيس.

فى رضوخ:

- متى يمكننى الخروج؟

- الآن لو أردت.

سلمنى علوان إلى الأصلع ذو الكرش (نائب الرئيس) وســــرنا معا فى طريق قصير، ثم ما لبث الأصلع أن انعطف بى لنرتقى خطوات سلم صغير ثم دفع بباب حديدى فوجدنـــا أنفســنا فـــى الجانب الخلفى من الحديقة.

أثناء سيرى صاح بى واحد من نزلاء عنبرى قائلاً:

- إن أصدقاءك يتشاجرون.

كانت أمل تصيح بمسعد قائلة:

- كفاك أيها الأحمق عبثـــا بـــالآخرين ألا تجـد فـــى الأشخاص سوى مادة للتندر والسخرية ومـــا أنـــت إلا إنسان تافه يحول أى أمر إلى مجرد دعابة مهما بلغـــت خطورته.

وصاح مسعد فى ضيق:

- أيتها الوقحة المغرورة إنها مهـــارة لا تتوافـــر لـــدى الكثيرين.

- بل هى التفاهة فأنت مريض بها.

وتدخل غريب قائلاً:

- نحن جميعاً مرضى، كفوا عن هذا الحديث.

ولكن مسعد استطرد فى جدية لأول مرة موجهاً حديثه إلى أمل:

- إذا كنت أنا تافه فما أنت إلا حشرة لعينة تحيا لمجرد تناول الطعام، فالموت أولى بك من الحياة.

كنت أتوقع أن تصيح أمل به.. وأن تصرخ فى عصبيـــة وهـــى تلقى فى وجهه بأفظع الشتائم ولكنها حتى لم تجهش بالبكاء.

التفتت إليه فى بطء شديد ثم قالت:

- يوماً ما كانت تنحنى لى كل الرؤوس لتقبل يدى، أما الآن فأنا حتى لا أملك اليد التى تمتد لتقبيلها، وصرت أنا التى تنحنى إلى كل الرؤوس لأننى صرت فى مستوى أدنى منهم... وحتى إن رفعت رأسى فلن أراهم، ولكن....

وصمتت برهة محاولة أن تتمالك نفسها ثم أردفت:

- ولكن فى داخلى ثمة أمل .. فلا زال لى عقل يفكر، وقلب ينبض بالحياة.

وإنهارت الفتاة لأول مرة وأجهشت بالبكاء المرير.

والتفت غريب فى غضب إلى مسعد قائلاً:

- إنك أغبى إنسان رأيته فى حياتى.

ولم ينبس مسعد، فقد كانت الدموع قد طفرت إلى عينيه وكأنه يجود بها نادماً على كلماته الجارحة.

بينما واصل غريب كلماته موجهاً إياها إلى أمل فى تلك المرة:

- أيتها الحمقاء لماذا تبكين؟ إن بكاءك هذا لا معنى له ولا جدوى منه.

****

كانت ثقة عاكف بى لا حدود لها .. وكنت أكلف أحياناً ببعض المهام السرية من جمع معلومات أو توصيل بعض المهمات أو التغطية على إحدى التحركات.

وكان التنظيم خير مثال للجدية .. إمكانياته رهيبة، أعضاؤه بالآلاف، خطته مجهولة لا يعلم بدقائقها سوى عاكف وعلوان والأصلع ذى الكرش المنتفخ.

علمت من عاكف أنهم يخططون ويجهزون منذ سنوات طوال رحل فيها إناس وأتى أيضاً فيها أناس آخرون.

وبينما كنت أمضى وحدى فى إحدى الدهاليز السرية سمعت صوتاً أنثوياً أعرفه حق المعرفة:

- ياهذا !!

- ماذا أتى بك إلى هنا؟

وقبل أن تتبس فاتنتى الغامضة استطردت قائلا:

- أتعلمين أنك كدت تزجين بى إلى الهاوية.

ولكنها قاطعتنى قائلة فى ثبات:

- يمكنك الآن أن تحقق حلمك الكبير!!!

سألتها:

- لماذا لم يقتلك أصحاب الملامح الباهتة؟

ولكنها تجاهلت سؤالى مستطردة:

- إننى أملك معلومات كثيرة من الممكن أن تفيدك.

- إنك حقاً تملكين أشياء كثيرة وتعرفين من المعلومات أيضاً الكثير، ولكن ترى هل تعرفين الحقيقة؟!

ولمحت علوان يقترب منى، قال:

- إن السيد عاكف يريدك الآن لأمر هام.

وعندما التفت إلى الفتاة لم أجد لها أى أثر.

(٢١)

"غريـــــب"

- ما معنى اختفاء غريب؟

مسعد:

- لا أدرى.

- هل أخذه أصحاب الملامح الباهتة؟

أمل:

- ...... بالتأكيد لا.

- لماذا؟

أمل:

- لأنهم يقومون بانتقاء ضحيتهم أمام الحشود المحتشدة، فهم يتعمدون بث الرعب فى نفوسنا.

- أين ذهب إذن؟

مسعد فى سخرية:

- لقد تبخر.

****

عندما طلبت من علوان أن يذهب بى إلى غرفة التعذيب، صـــاح

في دهشة:

- لماذا؟

قلت له:

- إنها أوامر الرئيس.

قال في تعجب:

- السيد/عاكف !!!

وقلت في اصرار محاولاً اخفاء ملامح وجهي:

- نعم.

لم يكن عاكف قد سمح لي بالتوجه إلى غرفة التعذيب ولكنني كنت متأكداً من وجود غريب هناك، وكانت المفاجأة ... مفاجأة رهيبة رغم توقعي اياها.

غريب مشوه .. ممزق الجسد، ملقى على الأرض .. يلتف حوله مجموعة من أعضاء التنظيم، يكيلون له الركلات والقبضات العنيفة.

صحت في غضب:

- ماذا تفعلون؟!

والتفت غريب إلى قائلاً في دهشة وقد تعلق بقدمي:

- صديقي .. كيف أتيت إلى هنا؟!

وجعلت أهوى بقبضة يدى عليهم جميعاً .. كنت أضربهم بقسوة وأنا أصيح:

- حمقى .. أغبياء.

ولم يكن منهم سوى الرضوخ فى صمت مشوب بالدهشة.
صحت بعلوان:

- كيف يحدث هذا يا علوان؟

- لما كل هذه الثورة، إنهم يقومون بإجباره على الاعتراف.

فى حدة:

- أى اعتراف؟!

- إننا نفعل ذلك مع جميع المشتبه فيهم، وكم توصلنا إلى العديد من الخونة بمثل هذا الإسلوب.

وهمس أحد الواقفين:

- يبدو أنه صديقه.

إلا أننى هويت بيدى على وجهه فى قوة قائلا:

- حتى وإن لم يكن صديقى.

صاح علوان فى غضب:

- إنه خائن، إنه واحد من أصحاب الملامح الباهتة.

وصاح غريب فيه:

- ماذا تقول أتقلب الحقائق، إنكم أنتم أصحاب الملامــح الباهتة.

وهمست فى حزن عميق:

- أحقا قد جاء اليوم الذى لا نستطيع أن نفرق فيه بيــن بعضنا البعض؟

وأردفت فى حزن:

- أيعلم عاكف بما يحدث هنا؟

علوان:

- إن هذه أشياء روتينية لا تستدعى إزعاجه.

والتفت إلى علوان فى غضب شديد ولــم أدر بنفســى إلا وأنــا أبصق فى وجهه، صائحاً به فى سخرية:

- تعذيب إنسان إلى حــد المــوت، شــىء روتينــى لا يستدعى إزعاج الرئيس!!!

نظر علوان إلى بعينين تقدحان بالغضب، ثم أشار إلى بقية رجال التعذيب إشارة خفية وهو يصيح بهم:

- ملامح باهتة.. اقبضوا عليه.

والتفوا جميعاً حولى، شاهرين أسلحتهم الرهيبــة فــى وجهــى متجاهلين مكانتى الرفيعة فى التنظيم.

صحت بعلوان:

- يبدو أنك مصر على قتلى.

وصاح فى فزع أحد الحراس ممن كانوا يتابعون الموقف:

- ماذا دهاكم إنه مساعد الرئيس.

إلا أن علوان صاح فيه فى غضب:

- إخرس يا غبى لقد انكشف على حقيقته، إنه وصديقه وكل هؤلاء الذين نقوم بتعذيبهم ليسوا إلا ملامح باهتة.

وانقسمنا إلى فريقين، فريق مكون من عشرين رجل، يتزعمهم علوان وفريق آخر مكون منعشرة رجال كنت أنا زعيمهم.

ونشبت بيننا معركة رهيبة...

صاح علوان فى قسوة، وهو يوجه لى طعنة غادرة من خنجره:

- أمثالك لا يستحقون سوى الموت.

وبمهارة استطعت أن أفلت من مرمى يديه، صحت به:

- إنك عار .. عار على هذا التنظيم .. إنك أغبى إنسان رأيته فى حياتى.

كانت المعركة تدور رحاها بينما غريب ومن معه من أولئك الذين تم القبض عليهم بنفس التهمة السابق إتهامى بها، والتى كدت ألقى حتفى بسببها لولا تدخل عاكف فى اللحظات الأخيرة، كانوا جميعاً ينظرون إلينا نظرات حائرة، خائفة، مشدوهة، إلا

أنهم مالبثوا أن إنضموا إلى فريق العشرة مرجحين كفتنا بقوة.

وسقط الرجال العشرون ما بين صرعى وجرحى.

التفت إلى غريب الذى أصيب بجرح قاتل، همس فى وهن وهـــو ملقى على الأرض ورأسه مستندة على ساقى، تنزف الدماء منه بغزارة، قال:

- لقد استطعت أن أقاتل.

- أنت شجاع.

- وأنت بطل .. بطل بكل ما تحمله الكلمة من معنى.

وقلت له مداعباً:

- لا تجهد نفسك بالحديث يا أيها الكاتب الشبح.

- ربما يكون هذا هواليوم الوحيد الذى أشعر فيه أننـــى إنسان موجود ... كائن حى .. محمل بكـــل معطيـــات الحياة الحقيقية.

ثمة أشياء مبهمة تتحرك فى أعماقى،أنا لم أكن أجسر على مجرد الحلم، على مجرد تصور ما يحدث الآن !!!

وهل من تربى على الإرهاب والبطش والخوف، وهل من عاش فى ظلمات الاستعباد والذل هل يجرؤ على أن يقول لا؟!

على أن يقف.. على أن يتماسك .. على أن يضـــرب ويبطــش ويواجه؟!.........

وتذكرت كلمات فاتنتى: يمكنك الآن أن تحقق حلمك الكبير، وكذا كلمات طارق: أن ابن لهذا الواقع.. فهذا هو واقعى أنا الذى لـــن أتخلى عنه قط، ولأول مرة بدأت أفهم،وغرقت فى معنى الكلمات ولم أفق منها سوى على تدفق الأعداد الغفيرة من الحراس تحيط بنا جميعاً بينما عاكف واقف بملامحه الصلبة ينظر إلينـــا فـــى غضب شديد.

(٢٢)

"الاجتماع الأخير"

فى صالة الاجتماعات منضدة طويلة..

عاكف .. علوان .. والأصلع وأنا فقط.

- إن ما حدث اليوم لهو أمر مرفوض لا أقبله أبداً مهما كانت المبررات.

هكذا قال عاكف وهو فى غاية الأسف ولكننى صحت بـــه فـــى انفعال شديد:

- أتعلم أن علوان قد تسبب فى موت غريب؟

عاكف:

-إهدأ يا صديقى.

- أنا لست بصديق لأحد.

علوان:

- يبدو أنك قد جننت.

عاكف:

- أنسيت أن هذا اليوم لهو أخطر يوم فى تاريخ تنفيـــذ خطة التنظيم؟!

- أى خطة وأى تنظيم؟

عاكف:

- إننا فى لحظات عصيبة، لحظات تحقيق الحلم، حلـــم الخلاص الحقيقى.

- أنا لا شأن لى بخططكم وأحلامكم هذه، بل إننى أعلن نفسى خارجاً على تنظيمكم هذا.

عاكف:

- الآن وفى تلك الساعات العصيبة تقول هذا!!!!

علوان فى سخرية:

- إنه حزين على صديقه غريب.

فى حدة:

- ليس على غريب وحده، ولكن على العشـــرات مـــن الأبرياء.

علوان :

- إنهم ملامح باهتة وأنت أيضاً ملامح باهتة.

- ولماذا لا تكون أنت واحدا منهم؟

عاكف:

- كفاكم تهريجاً.

- إذا كان التنظيم يستعمل تلك الأساليب المشروع منهـا وغير المشروع فأنا لا يسعدنى أن أكون واحداً منه.

عاكف:

- يجب أن تكون أكثر مرونة.
- ألم يكن غريب بصديق لك؟

عاكف:

- الجميع أصدقاء لى.
- إنك تتحدث بأسلوب ملتو.

علوان:

- تأدب يا فتى ولا تنسى أنك تتحدث مع الرئيس.
- أتدعى أنك لم تكن تعلم شيئاً عن مقتله؟!

عاكف:

- الأحمق علوان لقد أمرته فقط بتعذيبه لا بقتله.

فى حدة:

- كما أمرتهم بتعذيبى ... أليس كذلك؟!

عاكف:

- لا تفهم الأمر خطأ يا عزيزى.
- أى خطأ الذى تتحدث عنه؟

- إنك تختلف كثيراً عن غريب ذلك الساخر العابث الذى لا يقيم وزناً لأى شيء.

فى مرارة:

- بل إنه أكثرنا تقديراً للأمور،وحتى وإن كان كذلك، فإنه ليس من حق أحد، أى أحد أن يسلبه حياته.

علوان:

- ولكنه خائن... إنه يتعامل مع أصحاب الملامح الباهتة.

- يبدو أن الجميع فى نظر القائد علوان خونة!!!

علوان:

- ماذا تقصد؟

- ألم تدعى من قبل أننى أيضاً خائن.. ألم تهم بقتلى؟

عاكف:

- أنا لم آمر أبداً بقتل أحد، إن سياستنا لا تقوم أبداً على الدم.

- تقصد أنها تقوم فقط على استخدام أبشع وسائل التعذيب، حتى الصعق بالكهرباء.

نظر عاكف إلى فى دهشة، ولكننى واصلت مستطردا:

- لا تدعى أنك على غير علم بالذى يحـــدث حولـــك ..
أعتقد أنك لست بهذه الدرجة من السذاجة.

عاكف:

- الغاية تبرر الوسيلة، وأظنكم جميعاً تعلمون غايتنا...
لا تجعل مثل هذه الخلافات التافهة فى وجهات النظر تجرك إلى مشاكل أنت فى غنى عنها.

فى دهشة:

- موتى، أو موت غريب، أو حتى موت أحد الأبريـــاء ظلماً يعد فى نظر السيد الرئيس مجرد أمر تافه!!.

علوان فى بساطة:

- إن هذه سياستنا، ولن نسمح لأحد أبداً أن يغيرها.

فى ضيق:

- أية سياسة؟!

عاكف:

- أصمت.

فى حدة:

- أنت أيضاً واحد منهم.

عاكف:

- هل جننت؟!

علوان:

- إنه يراك ملامح باهتة.

عاكف فى غضب:

- ماذا تقول؟!

- إننى أرفض ... أرفض بشدة.

عاكف فى ثورة:

- ترفض ماذا؟

- **أرفضكم كأشخاص، أرفضكم كواقع، أرفض أسلوبكم فى التعامل مع الناس، مع الأشياء،إن ما فعلتموه مع غريب ومعى ومع عشرات الأبرياء لا يختلف كثيراً عما يفعله أصحاب الملامح الباهتة، حتى غرفة التعذيب البشعة الخاصة بهم يوجد لديكم واحدة مثلها تماماً، فما هى إلا صورة أخرى منها، بل إنكم أنتم صورة أخرى منهم.**

علوان:

- ماذا تريد يا هذا؟

- **أن تختلف الظروف والأساليب، أن-تختلف الطرق، لاداعى لكل خططكم هذه، المبنية على عدم المواجهة،**

على الخوف، على الهروب، ببساطة أن نصبح صرحاء
مع أنفسنا..
لقد أصبحنا صورة كربونية أخـــرى مـــن أصحـــاب الملامـــح
الباهتة...
أتدرى أننى حتى هذه اللحظة لا أصدق أن الأصلـــع ذا الكـــرش
المنتفخ ليس بواحد من أصحاب الملامح الباهتة.
لابد من انهيار نظامكم العقيم هذا، لابد من إيقاف نزيف الواقـــع
نزيف الأشخاص، نزيف الظروف السيئة.
أن نواجه لا أن نهرب، أن نختلف، أن نتميز، لا أن نتشابه.
عاكف فى غضب:

- إذن فأنت ترفض سياستنا؟
- أنا أرفض سياسة الخوف والعجز.

علوان:

- أصمت أيها الأحمق.

عاكف فى حدة:

- كف عن التحليق فى سماء الخيال وعـــد إلـــى أرض الواقع..يجب أن تتقبل بعـــض الاســـتثناءات .. بعـــض التجاوزات..بعض الانحرافات .. بعض الوسائل التـــى تبدو فى نظر الكثيرين غير مشروعة:

في حدة:

- أنا لا أنشد تحقيق عالم مثالى .. كل ما أريده فقط هو أن أستطيع التمييز بين ملامحكم وبين ملامح أصحـــاب الملامح الباهتة.

أن أستطيع أن أفرق بين الأصلع ذى الكرش المنتفخ وبين غيره من أصحاب الملامح الباهتة.

والتفت الأصلع ذو الكرش إلى قائلا لأول مرة:

- ليست مشكلتى يا هذا أنك لا تستطيع أن تفرق بينـــى وبين أصحاب الملامح الباهتة... إنهـــا مشـــكلتك أنـــت الحقيقية.

وتدخل عاكف قائلا فى غضب:

- يبدو أنك فعلا قد فقدت القدرة على التمييز بين كل ما هو صواب وكل ما هو خطأ، بل يبدو أنك قد جننت!!!

فى جدية:

- أيها الرئيس الصامت وعازف الناى سابقاً أنا لا أسمح لأى شخص أن يتهمنى بالجنون حتى وإن كان الرئيس.

والتفت عاكف إلى قائلاً فى غضب:

- أنت ليس لك مكان معنا.

ثم إلتفت إلى حراسه قائلا:

- إلقوا به إلى الخارج.

وصاح علوان به:

- بل **مر** بقتله، سيدى الرئيس.

إلا أنه أشاح لعلوان بيده أن يصمت، ثم قال لـــى قبــل أن يهــم الحراس بتنفيذ أوامره:

- لولا أننى أعرفك جيداً لكنت بالفعل قد أمرتهم بقتلك، ولكن حذار أن تفتح فمك.

(٢٣)

"أصحاب الملامح الباهتة"

من هم؟!

من هم هؤلاء الذين يتحركون فى صمت؟!

إنهم ليسوا أصحاب الملامح الباهتة، ولكن ملامحهم صارت شبيهة بهم.

نفس الخطوات البطيئة..

نفس النظرات الغريبة التائهة..

حتى ملامحهم صارت باهتة مثلهم.

هل من الممكن أن يكون هناك فارق حقيقى بيننا نحن وبين أصحاب الملامح الباهتة؟!

إنهم يمزقوننا، ويقطعون أوصالنا، ويلقون بنا فى دهاليز طويلة مفزعة، غامضة، ليست هناك بداية أو نهاية لها.

ترى لماذا يفعلون ذلك بنا ؟

هذا السؤال لا توجد له عندى أى إجابة !!!

أية إجابة واحدة محددة وقاطعة ومقنعة!!!

إن الرجل ذا الكرش كانت ملامحه باهتة تماماً، وهو فى حقيقة

الأمر ليس منهم، بل على النقيض من ذلك، كان عدواً لهم.
إن الفارق بين الحقيقة والوهم ليس إلا شعرة صغيرة، بل وأحيانا لا توجد هذه الشعرة عند بعض الناس، وقـد يتهمونهـم عندئـذ بالجنون، فهل أنا مجنون؟!
ما معنى الجنون إذن؟!
وهل هناك حالة محددة يمكن أن نطلق عليها مصطلح الجنون؟!
بعض تصرفاتى قد يشوبها شىء من العقل والبعض الأخر قـد يشوبها شىء من الجنون، وقد تكون هى المزيج بينهما.
لقد حاولت أن أنهض بنفسى وبكل المحيطين بـى.. حـاولت أن أفك ذلك الحيز اللعين من الغموض والعـذاب والألـم،حـاولت عشرات المرات، ولكن فى كل مرة كنـت أفشـل، ربمـا لأن طريقتهم فى التملص والسعى نحو الخلاص ربما لأنها تقـترب من نفس طريقة أصحاب الملامح الباهتة.
نفس الخسة والوضاعة فى الاسلوب، نفس الطرق الملتوية فـى التعامل مع الأخرين والشك حتى فى أقرب الناس إليهـم، وهـم حتى فى طريقتهم لا يودون الخلاص وإنما يودون الهرب .. فهم يخشون المواجهة، وهى حتمية لابد منها.
إنه لشىء مفزع أن تتشابه الوجوه والملامح ويحمل الجميع نفس القناع .. قناع الملامح الباهتة .. تلك الملامح الهلامية الغامضة

غير الواضحة..

تلك النظرات الخالية من الإحساس أو الشعور أو حتى الحياة...

ترى ما الذى يدفعهم إلى التمسك بالحياة ؟!

وهل هم أحياء فعلاً أم أنهم منومون أو موتـــى أو حتـــى بقايـــا موتى؟!

إنهم ليسوا موتى وليسوا أحياء.....

إذن هم يقعون فى تلك المنطقة الوسطى بين الحياة والمـــوت... فهل توجد هذه المنطقة فعلا؟!

إننا نحيا .. أو نحاول أن نحيا .. لنا أهداف وطموحات نحـــاول تحقيقها وكلما تقدمنا واقتربنا من أهدافنا كلما كانت سعادتنا أكبر .. أى أننا نحيا لأننا نحب الحياة!!!

هذا هو الجواب بمنتهى البساطة.

هناك أشياء كثيرة تثيرنا وتحركنا وتدفعنـــا للجـــرى، للحركـــة، للهاث، للحياة ولكن أصحاب الملامح الباهتة ما الذى يدفعهم لأن يظلوا على قيد الحياة؟!

إنهم لا يشعرون، ولا يحسون، ولا يحبون... بل ولا يمتلكـــون حتى قدرة حقيقية على الكره.

ترى هل أنا مخطىء فى حكمى عليهم؟! أم أنهم أصحاب منطق خاص، ذلك المنطق الذى يتحركون من خلاله والذى أقيم به هـــذا

العالم الغامض؟!

وهل نحن لسنا مثلهم، نحمل ملامح باهتة؟!

ربما نكون كذلك من وجهة نظرهم هم، مما يستثيرهم ويدفعهم إلى أفعالهم معنا.

أم أنهم ليسوا إلا مثلنا ،وما هذا الذى على وجوههم إلا قناع يرتدونه..

مجرد قناع خارجى... يخفى ملامحهم الحقيقية والتى تحمل السر، سر هذا اللغز اللعين الذى يطوقنا جميعاً.

فى مشيتهم وضاعة وخسة، فهم لا يمشون على الأرض وإنما يزحفون على بطونهم، أقدامهم معوجة لا تكاد ترتفع عن الأرض.

وهم لا يتكلمون وإن استطعت قد تسمع فحيحهم، حتىً جلودهم ملساء ناعمة كجلد الثعبان.

وإنك بالكاد تستطيع أن تميز أنثى الثعبان من الذكر وقد لا تستطيع.

(لكل فعل رد فعل مساو له فى المقدار ومضاد له فى الإتجاه)

هذه القاعدة لا تنطبق عليهم قط، إنهم يتصرفون أحياناً بدون أى رد فعل، وأحياناً أخرى تكون تصرفاتهم مبالغ فيها، غريبة عصبية، مفاجئة، غير ممهدة.

والمشكلة الحقيقية الآن هى:

هل سنصمد؟ هل سنقاوم؟ هل سنواجه؟

أم سنتحول؟!!

(٢٤)

"النهايـــــة"

الأشكال والملامح الهلامية!!!

كيف جاءوا؟! من أين انبعثوا؟! ماذا يريدون منا؟!

ثلاثة أذرع لسلحفاه وجمل وكلب والوجه شديد الفوضى... عين واحدة وفم غليظ الأشداق وأذن كأذن الفيل وقرن كقـــرن وحيـد القرن.

تشكيلات متعددة، خليط من الأنواع المختلفة.

كان أصحاب الملامح الباهتــة يمــتزجون بأصحـــاب الملامـــح الهلامية (إنهم كائنات أخرى أشد فتكا) ونحن نتراجع .. ننكمش .. يتملكنا الهلع.

صاح مسعد:

- إنهم أجزاء منى ومنك ومنا جميعاً .. فهم ليسوا سوى نتاج جينات وتركيبات عظمية ولحمية وأشـــياء أخـــرى عجيبة، حية وميتة... إنهم أشرس وأعنف سلاح يمكـــن استخدامه من قبل أصحاب الملامح الباهتة.

وكنت أنا أتطلع إلى أعضاء التنظيم السرى .. كانوا مربوطيـــن،

مصلوبين، تتمزق لحومهم وتنهش عظـــامهم بـــأيدى الوحـــوش البشعة وتحت أسنانهم الحادة، ونحن نتضاءل .. نصرخ ونعـــود فنبتلع صراخنا من الفزع...

ها هى خطة التنظيم قد فشلت، كما تـــم القبـــض علـــى معظـــم أعضائه ليتم التمثيل بجثث الأموات والتعذيب العلنى حتى الموت للأحياء منهم.

والعجيب أنه بالرغم من القبض على علوان إلا أنه لـــم يـــدل باسمى لأصحاب الملامح الباهتة وذلك على الرغم مـــن العـــداء الشديد بينى وبينه !!!

همس عاكف وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة:

- صديقى.......

أمسكت بيده المهشمة الملطخة بالدماء، همست:

- إصمت يا عاكف.

- لا وقت للصمت.

- أرح نفسك .

- يبدو أنك كنت على صواب وأننا كنا مخطئين.

- جميعنا نخطئ.

- عليك أن تكمل ما بدأناه معاً.

- ....

- بعقيدتك التى تؤمن بها و كنا نحن نسخر منها.

- لا عليك يا عاكف لا عليك يا صديقى.

وصمت عاكف صمته الأبدى، وجعلت أنظر خلفى إلى هذه الجموع المحتشدة، المكومة فى ذعر ... كانوا جميعاً يدركون ما يدور بيننا من حوار.

وكانت أمل تبكى بينما يضمها مسعد إلى صدره فى حنان مفرط.

لم تكن مفاجأة لى أن أعلم بقرار زواجهما السريع من بعض !!!!!

فهما بالفعل أصلح اثنان لبعضهما البعض.

وتحسست رأسى فى بطء... كانت الدماء تنزف منها بغزارة وعندما وضعت يدى فى رأسى أدركت أن التجويف كبير.

همس مسعد فى دهشة:

- ما هذا يا صديقى!؟ أين عقلك؟

نظرت إليهم جميعاً وقد أعترانى الفزع، أحقاً قد فعلها معى أصحاب الملامح الباهتة ؟!

أحقاً قد قاموا بسلب عقلى منى؟! ووضعوا أشياء ونزعوا أشياء واستبدلوا أشياء مكان أشياء أخرى.

كانت صدمة للجميع وكنت أنا أولهم، إلا أن صيحاتهم الهـــادرة كانت قد بدأت تدوى فى الأفاق وكأن صورة المسوخ الهلامية قـــد تبخرت من ذهنهم ومعها كل الفزع والقتلى واللحم والدم والعظام المهشمة المتناثرة من حولنا، كانوا يصيحون:

- يحيا الزعيم... يحيا الزعيم.

وكان عابد يرفع يديه يشير إلى والابتسامة الرائعة لـــم تفـــارق شفتيه.

وجعلت فاتنتى الغامضة تقترب منى ... أمسكت بيمناى تضغـــط عليها بيدها البضة، لا تود أن تتركها أبداً وكأنها تتشبث بى وأنا مذهول، محمول فوق أعناقهم.

ووضعت يدى الأخرى فى رأسي... كانت الدماء تـــنزف منهـــا بغزارة وكان إحساسى بالفراغ الهائل فى رأســـى يـــزداد وهـــم يصرخون:

- يحيا الزعيم ... يحيا الزعيم.

تمت

القاهرة/الإسكندرية

٢٠٠١/٣/٥

"صدر من سلسلة أصيل"

١ - الكشر	(رواية)	حجـــــاج أدول
٢ - عش الدبابير	(قصص)	محســـن الطوخى
٣ - الزهر والطل	(شعــر)	شاكر أبو السعــود
٤ - أنا الإمام	(قصص)	عبد الهادى شعلان
٥ - ساكن البحر	(قصص)	عبد الهادى شعلان
٦ - الدحديرة	(رواية)	عبد الفتاح مرسى
٧ - دماء على تل الزمار	(رواية)	أنـــور جعفـــر
٨ - الشوك والجمر	(رواية)	أنـــور جعفـــر
٩ - أصحاب الملامح الباهتة	(رواية)	شريف محيى الدين إبراهيم

المؤلف:
شريف محيي الدين ابراهيم
تليفون: ٥٤٩٩١١٠ الاسكندرية

عضو اتحاد كتاب مصر
عضو هيئة الفنون والأداب
عضو جماعة اصيل الأدبية

الأعمال المنشورة:

١/ أحذية وكلمات	قصص قصيرة
٢ /طائر على صدر امرأة	رواية
٣/أصحاب الملامح الباهتة	رواية

الأعمال تحت الطبع:

١/طريق النخيل	قصص قصيرة
٢/رجل فى زمن الخوف	مسرحية
٣/طيور الزمن الضائع	رواية

وهذا وقد نشرت أعمال المؤلف فى العديد

من الصحف والمجلات المصرية.